



جامعة مؤتة

عمادة الدراسات العليا

صورة المدينة في الشعر الشاميّ في القرنين السادس والسابع الهجريين

إعداد الطالبة

آلاء سالم إبراهيم بني سلامة

إشراف

الأستاذ الدكتور شفيق محمد الرّقب

رسالة مقدمة إلى عمادة الدراسات العليا
استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير
في الأدب قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة مؤتة، ٢٠١١

الإهداء

إلى من كلله الله بالهيبة والوقار إلى من علمني العطاء بدون انتظار .. إلى من أحمل اسمه بكل افتخار .. أرجو من الله أن يمد في عمرك لترى ثماراً قد حان قطافها بعد طول انتظار.... وستبقى كلماتك نجوم أهتدي بها اليوم وفي الغد وإلى الأبد.... والدي العزيز

إلى رفيق الدرب والزوج الغالي، إلى الذي ظل في سمائي يستمطرني بالأمل الباسم، ويشمخ بنا فوق الآلام، " نشأت " إلى ملاكي في الحياة إلى معنى الحب وإلى معنى الحنان والتفاني إلى بسمه الحياة وسر الوجود إلى من كان دعاؤها سر نجاحي وحنانها بلسم جراحي إلى أغلى الحبايب..... أمي الحبيبة

إلى والدي وعمي الغالي " أبو حسن " الذي شجعني على مواصلة العلم..... إلى ابني زهرة حياتي " معتصم "

إلى الأخوات اللواتي لم تلدهن أمي .. إلى من تحلوا بالإخاء وتميزوا بالوفاء والعطاء إلى ينباع الصدق الصافي إلى من معهم سعدت، وبرفقتهم في دروب الحياة الحلوة والحزينة سرت، إلى من كانوا معي على طريق النجاح والخير إلى من عرفت كيف أجدهم وعلموني أن لا أضيعهم..... صديقاتي إلى هؤلاء جميعاً أهدي ثمرة جهدي المتواضع

آلاء بني سلامة

الشكر والتقدير

بعد حمد الله والثناء عليه، أتقدم بجزيل شكري وعرفاني وتقديري إلى الأستاذ الدكتور شفيق محمد الرقب على ما منحي إياه من وقته وجهده في إشرافه على هذه الرسالة، وجعل الله هذا العمل في ميزان حسناته. كما وأتقدم بالشكر الجزيل إلى أعضاء هيئة المناقشة على تفضلهم بمراجعة الرسالة وتدقيقها لتخرج بأفضل صورة.

وإلى كل من ساهم في إنجاز هذا العمل.

آلاء بني سلامة

فهرس المحتويات

الصفحة	المحتوى
أ	الإهداء
ب	الشكر والتقدير
ج	فهرس المحتويات
هـ	الملخص باللغة العربية
و	الملخص باللغة الإنجليزية
١	المقدمة
٣	التمهيد: الأوضاع العامة للمدن في ديار الشام في القرنين السادس والسابع الهجريين
	الفصل الأول: مدح المدن ووصفها
٢٢	١.١ مدح المدن ووصفها
٢٥	١.١.١ مدح المدينة الإسلامية
٤٧	٢.١ وصف المدينة المحتلة
٦٥	الفصل الثاني: هجاء المدن
٦١	١.٢ هجاء المدن
	الفصل الثالث: رثاء المدينة الإسلامية
٧٩	١.٣ رثاء المدن الإسلامية
٨٠	١.١.٣ رثاء بيت المقدس وديار الشام عامة سنة ٤٩٢هـ
٨٦	٢.١.٣ رثاء المعرة
٨٧	٣.١.٣ رثاء عسقلان
٨٨	٤.١.٣ رثاء حوران
٩٢	٥.١.٣ رثاء بيت المقدس سنة ٦١٦هـ
٩٥	٢.٣ الغزو المغولي
	الفصل الرابع: التصوير الفني للمدينة الإسلامية
٩٩	١.٤ مصادر الصورة

٩٩	١.١.٤ القرآن الكريم
١٠٢	٢.١.٤ الإنسان
١٠٩	٣.١.٤ الحياة الاجتماعية
١١١	٤.١.٤ الحروب
١١٢	٥.١.٤ الطبيعة
١١٤	٢.٤ الصورة والحواس
١٢٠	٣.٤ التشكيل البلاغي لصورة المدينة
١٢٤	الخاتمة
١٢٨	المراجع

الملخص

صورة المدينة في الشعر الشاميّ في القرنين السادس والسابع الهجريّين

آلاء سالم بني سلامة

جامعة مؤتة، ٢٠١١

عالجت هذه الدراسة موضوعاً أدبياً كشفت من خلاله عن مدى تفاعل الأدب مع البيئة المحيطة به، وما فيها من أحداث ومظاهر عمرانيّة، وتشكّلت من تمهيد وأربعة فصول، درس التمهيد الأوضاع العامّة للمدن في ديار الشام في القرنين السادس والسابع الهجريّين من الناحية السياسية، والناحية الاجتماعية، والناحية الفكرية.

ودرس الفصل الأول صورة المدينة الإسلاميّة من خلال مدح المدن ووصفها، وبيّن أنّ الشعر صورّ مظاهر الحياة الحضارية كالقصور والمدن، ووصف مناظر الطبيعة التي تحيط بالمدينة كالرياض والبساتين والبرك والربيع، وتغنّى بجمال أزهار الرياض وثمارها ورسم لوحات فنية ناطقة بالجمال والحيوية. وتناول الفصل الثاني هجاء المدن والدوافع التي جعلت الشاعر يذمّ المدينة وينفر منها ويفضل الإقامة بعيداً عنها، فقد عانى الشعراء حالة الفقر والحرمان وضيق الحال والعسر مما دفعهم إلى نسج قصائدهم التي يترجمون فيها حالتهم الاجتماعية البائسة والشكوى من المدينة التي يقطنون فيها .

وتتناول الفصل الثالث غرضاً شعرياً يرتبط بتاريخ العصر، وهو رثاء المدن، فقد كان للغزو الصليبي أثر واضح في تدمير المدن وخرابها وتقويض مظاهر العمران، فصور الشعراء ضروب الفواجع والمآسي التي تعرضت لها هذه المدن قبل الفاجعة والحالة التي آلت إليها المدن أثناء النكبة بأسلوب بكائيّ حزين. وحلّل الفصل الأخير الصورة الفنيّة في شعر المدن من خلال دراسة مصادر الصورة وأنماطها الحسيّة والتشكيل البلاغي لها.

Abstract

The city's image in Al-shami poetry in the sixth and seventh Hijri Centuries

Alaa Salem Bani salameh

Mutah University, 2011

This study talked a literary subject which reveled the extent of interaction with the environment surrounding it, with its events and aspects of construction.

The study included an introduction and four chapters, The introduction studied the general conditions for cities in Ai-shami lands in the hijri sixth and seventh centuries, from the political, and socially, and intellectual side.

The first chapter studied the image of the Islamic city through flattering the cities and their description, Also it clarified that poetry pictured the civilized aspects of life such as palaces and cities. Besides describing the natural scenes that surround the cities, such garden , orchards, ponds, spring, It also praised the beauty of flowers, and their fruit and a drawing artistic paintings expressing beauty and activity.

The Second chapter criticized the cities and the motives urged the poet to curse the city and alienate it and prefer to stay away from them, the poets suffered from poverty, deprivation and hardship which, urged them to make poetry, expressing their social and miserable condition and to complain from the city where the live.

The third chapter dealt a poetic purpose related to the age in story which is the lamentation of cities, There was a clear impact for the crusader invasion on the destruction of cities, and to undermine the aspects of construction.

The poetry reflected the cruelty and tragedies the cities faced and the situation that led to calamities in a crying sad way.

The last chapter analyzed the artistic picture the poetry of cities through studying the sources of the image and the sensory patterns and rhetoric composition for it.

المقدمة:

كان للمدن الإسلامية حضورٌ واضحٌ في الشعر الشاميّ في القرنين السادس والسابع الهجريين، وذلك بسبب الأحداث الجسام التي ألمّت بالأمة آنذاك، وانتقال مركز الخلافة من بغداد إلى مدنٍ أخرى، وازدهار مظاهر الحضارة والعمران الاجتماعي فيها.

وترمي هذه الدراسة إلى دراسة الشعر الذي قيل في المدن الإسلامية في القرنين السادس والسابع الهجريين، وذلك لبيان العوامل التي أدت إلى حضور المدينة الإسلامية في الشعر الشامي في القرنين السادس والسابع الهجريين، وتحليل الموضوعات الشعرية التي تناولها الشعراء في سياق حديثهم عن المدينة الإسلامية، وتحليل الصور التي رسمها الشعراء للمدينة الإسلامية، وبيان أهمية الشعر الذي قيل في المدينة الإسلامية في الدراسات التاريخية والاجتماعية لذلك العصر.

وتتمثل أهمية البحث في دراسة ظاهرة هامة في الشعر الشاميّ في القرنين السادس والسابع الهجريين، حيث اهتم الشعراء آنذاك برثاء هذه المدن ووصفها ومدحها وهجائها وتصوير مظاهر العمران فيها. وهذا النوع من الدراسات، بالإضافة إلى قيمته الأدبية، فإنه يعمق معرفتنا للعصر وما كان يموج فيه من تيارات سياسية، ومظاهر اجتماعية، واتجاهات مذهبية، وصور حضارية.

وسوف يُحلّل الشعر في هذه الدراسة في ضوء التاريخ، وفي ضوء المعلومات التي قدّمها الرحّالة المسلمون عن البلدان الشامية التي زاروها، مع الاهتمام ببيان النواحي الجمالية في هذا الشعر، لذا فإنّ الدراسة ستفيد من المنهجيين التاريخي والفني والتحليلي.

وتقع هذه الدراسة في تمهيدٍ وأربعة فصول وخاتمة، يتناول التمهيد الأوضاع العامة للمدن في ديار الشام في القرنين السادس والسابع الهجريين، ويدرس الفصل الأول مدح المدن ووصفها من خلال بعدين أساسيين هما: مدح المدينة الإسلامية، والبعد الثاني وصف المدينة المحتلة، وذلك باعتبار المدينة قوّة إلهامية تستدعي المدح أو الوصف، ويدرس الفصل الثاني هجاء المدينة، أما الفصل الثالث فيكشف عن الشعر الذي قيل في رثاء المدن آنذاك، ويحلل الفصل الرابع الصورة الفنية

للمدينة من حيث مصادرها، وأنماطها الحسيّة، والتشكيل البلاغيّة للصورة، وتنتهي
الدراسة بخاتمة تلخّص أهم النتائج التي توصّلت إليها.
وأخيراً فإنّي أرجو الله -عزّ وجلّ- أن أكون قد أصبت التوفيق في هذه
الدراسة، فله - سبحانه- الحمد من قبلُ ومن بعدُ.

التمهيد

الأوضاع العامة للمدن في ديار الشام في القرنين السادس والسابع الهجريين

كانت صفحة الحروب الصليبية هي الصفحة المميزة للحياة السياسية في بلاد الشام في القرنين السادس والسابع الهجريين، فقد بسط الفرنجة نفوذهم على معظم المدن الشامية الكبرى، باستثناء دمشق وحلب، فقد ظهر الجيش الصليبي أمام أسوار إنطاكية، سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م، وظل محاصراً لها حتى استولى عليها، مؤسساً بها إمارة، ثم بسط نفوذه على الرها، وأسس بها إمارة ثانية سنة ٤٩١هـ/١٠٩٨م، ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل بدأت أطماع الصليبيين تتجه نحو بيت المقدس، فسيطروا عليه، وأسسوا فيه إمارة ثالثة فيه ٤٩٢هـ/١٠٩٩م، وكانت الخاتمة لمدينة طرابلس الذي ظل الجيش الصليبي محاصراً لها سنين عديدة، حتى سقطت سنة ٥٠٢هـ/١١٠٩م، وأسس إمارة رابعة فيها.

وكان الصليبيون يعيشون فساداً في كل مدينة يحتلوها، فعند دخولهم بيت المقدس بعد حصار دام أربعين يوماً^(١) اقتحموا المدينة من جهتها الشمالية، فلاذ المسلمون ببيت المقدس لعلهم ينجون من القتل، وفتحت أبواب المدينة المقدسة، فدخلت الجيوش الصليبية في اندفاع وتعطش لدماء دون تنظيم سنة ٤٩٢هـ، ثم تعقب الصليبيون أهل المدينة الذين لاذوا بالمسجد الأقصى، فأغلق المحتمون الأبواب خوفاً منهم، فأعطاهم الصليبيون الأمان، ولما فتحوا لهم الأبواب نكثوا العهد، وقتلوا جميع من فيه وقد وصف كثير من المؤرخين أحداث المذبحة التي حدثت في القدس يوم دخول الصليبيين إليها، وكيف أنهم كانوا يزهون بأنفسهم لأن ركب خيولهم كانت تخوض في دماء المسلمين التي سالت في الشوارع، وروى ابن الأثير في تاريخه ما فعله الصليبيون عند دخول بيت المقدس قائلاً: "ملأ الفرنج القدس نهار يوم الجمعة، لسبع بقين من شعبان، وركب الناس السيف، ولبت الفرنج في البلدة أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين، واحتفى جماعة من المسلمين بمحارب داود، فاعتصموا به، وقتلوا فيه

(١) ابن القلانسي، حمزة بن أسد بن علي، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق: سهيل زكار، دمشق، دار

ثلاثة أيام، وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً، منهم جماعة كبيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف.....^(١).

كما وصف ستيفن رنسيمن في كتابه ما حدث في القدس يوم دخلها الصليبيون فقال: "وفي الصباح الباكر من اليوم التالي اقتحم باب المسجد ثلة من الصليبيين، فأجهزت على جميع اللاجئين إليه، وحينما توجه قائد القوة ريموند أجيل في الضحى لزيارة ساحة المعبد أخذ يتلمس طريقه بين الجثث والدماء التي بلغت ركبتيه، وتركت مذبحه بيت المقدس أثراً عميقاً في جميع العالم، وليس معروفاً بالضبط عدد ضحاياها، غير أنها أدت إلى خلو المدينة من سكانها المسلمين واليهود؛ بل أن كثيراً من المسيحيين اشتد جزعهم لما حدث...."^(٢).

وتحدّث غوستاف لوبون في كتابه - نقلاً عن روايات رهبان ومؤرخين رافقوا الحملة الصليبية الحاقدة على القدس - عمّا حدث حين دخول الصليبيين للمدينة المقدسة من مجازر دموية لا تدل إلا على حقد أسود متأصل في نفوس ووجدان الصليبيين. قال الراهب "روبرت" أحد الصليبيين - المتعصبين وهو شاهد عيان لما حدث في بيت المقدس - واصفاً سلوك قومه: "كان قومنا يجوبون الشوارع والبياديين وسطوح البيوت ليرووا غليلهم من التقتيل، وذلك كاللبؤات التي خطفَت صغارها! كانوا يذبحون الأولاد والشباب، ويقطعونهم إرباً إرباً، وكانوا يشنقون أناساً كثيرين بحبل واحد بغية السرعة، وكان قومنا يقبضون كل شيء يجدونه فيبقرون بطون الموتى ليخرجوا منها قطعاً ذهبية! فيا للشره وحب الذهب، وكانت الدماء تسيل كالأنهار في طرق المدينة المغطاة بالجثث....."^(٣).

(١) ابن الأثير، محمد بن محمد بن عبد الكريم، الكامل في التاريخ، بيروت، دار الكتاب العربي، ط ٣، ١٩٨٠، ج ٨، ص ١٨٩ - ١٩٠.

(٢) رنسيمن، ستيفان، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٧، ج ١، ص ٤٠٤ - ٤٠٦.

(٣) لوبون، غوستاف، حضارة العرب، ترجمة: محمد بدران، جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٥٧، ص ٣٢٥.

وعند دخول الصليبيين المعرة، عاثوا خراباً وتدميراً، فقد وصف لوبون أعمالهم الوحشية إذ يقول: "وعمل الصليبيون مثل ذلك في مدن المسلمين التي اجتاحتوها، ففي المعرة قتلوا جميع من كان فيها من المسلمين اللاجئين في الجوامع والمختبئين في السرايب، فأهلكوا صبراً ما يزيد على مائة ألف إنسان -في أكثر الروايات- وكانت المعرة من أعظم مدن الشام بعدد السكان بعد أن فرَّ إليها الناس بعد سقوط إنطاكية وغيرها بيد الصليبيين...." (١).

وكان موقف حكام البلاد سلبياً من هذا الغزو الصليبي، فلم يستطيعوا الوقوف في وجهه ولاسيما الفاطميون، مما أثار استهجان بعض المؤرخين مثل ابن تغري بردي الذي قال "ولم ينهض الأفضل (٢) بإخراج عساكر مصر وما أدري ما كان السبب في عدم إخراجهم مع قدرته على المال والرجال" (٣). غير أننا لا نعدم بعض الوثبات الإسلامية في وجه الفرنجة فقد نازلهم اتابك (٤) طغتكين حاكم دمشق في أكثر من موقعه وتمكن من التغلب عليهم، بيد أن حروبه لم تكن كلها مظفرة، وقد توفي سنة ٥٢٢هـ/ ١١٢٨م، "فأبكى العيون، وانكأ القلوب، وفت في الأعضاء" (٥)، فـ

(١) لوبون، حضارة العرب، ص ٣٩٦ .

(٢) هو أمير الجيوش الملك الأفضل بن شاهنشاه بن الملك أمير الجيوش بدر الدين الجمالي، قام بالوزارة بعد أبيه، وقد عظم شأنه، قتل سنة ٥١٥ هـ، بتواطؤ من الأمر الفاطمي، انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٥٨٩-٥٩١.

(٣) ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن محمد، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، القاهرة، (د.ت)، ج ٥، ص ١٤٧.

(٤) الأتابك: كلمة تركية مكونة من "أتا" وهو الأب، و"بك" وهو الأمير. وكان الأتابك يكلف من السلطان بالوصاية على واحد أو أكثر من أبنائه الذين لم يبلغوا سن الرشد. انظر: ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد ابن محمد، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨، ج ١، ص ٣٦٥، وانظر: القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣، ج ٤، ص ١٨.

(٥) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٤٨، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٦٥١.

"خلا الشام من جميع جهاته من رجل يقوم بنصرة أهله، فلطف الله بالمسلمين، بولاية عماد الدين زنكي....." (١).

تعدّ ولاية عماد الدين زنكي إيذانا بمرحلة جديدة في الصراع مع الغزاة، فقد جعل أساس حركته، تحقيق هدفين ساميين هما: توحيد المدن والإمارات المحلية في الجزيرة والموصل، ومجابهة الصليبيين اعتماداً على قاعدة عسكرية وبشرية واسعة النطاق (٢). تمكن عماد الدين من خلال جهود مكثفة أن يوحد تدريجياً البلاد الإسلامية في الجزيرة الفراتية، ثم عبر الفرات وملك حلب، وغيرها من البلاد الشامية، وتطلع بعد ذلك إلى استعادة دمشق، فحاصرها ثلاث مرات لكنه لم يتمكن من أخذها (٣).

ثم واصل عمليات التوحيد، ونازل الصليبيين في عدد من الحصون والقلاع، كحصن الأثارب (٤) الذي تمكن من السيطرة عليه، ثم توجه إلى حصن حارم (٥) فحصره، فأنفذ إليه الأعداء يطلبون منه الصلح فأجابهم (٦) بالإضافة إلى شن العديد من الغارات، وتمكن سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م (٧) من توجيه ضربة قاصمة إليهم باسترداده للرها، منتزعاً أولى إماراتهم في البلاد الإسلامية.

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٥٩٤.

(٢) خليل، عماد الدين، الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام، بيروت، ١٩٨٠، ص ٢٨٧، وانظر: الرقب، شفيق، الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري، دار صفاء، عمان، ١٩٩٣، ص ١٣.

(٣) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٧٢. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١١، ص ٧٣-٧٥. وانظر: ابن العديم، كمال الدين الحلبي، زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق: سامي الدّهان، المعهد الفرنسي، دمشق، ١٩٦٨، ج ٢، ص ٢٥٨.

(٤) الأثارب: قلعة بين حلب وإنطاكية بينها وبين حلب ثلاث فراسخ. الحموي، ياقوت شهاب الدين بن عبد الله البغدادي، معجم البلدان، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٥٥، ج ١، ص ٢١٣.

(٥) حارم: حصن حصين من أعمال حلب، المرجع نفسه، ج ١، ص ٣٦٧.

(٦) أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي، الرّوضتين في أخبار الدولتين: النورية والصلاحية، بيروت، دار الجيل، (د.ت)، ج ١، ص ٧٨.

(٧) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٣٦، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١١، ص ٩٨.

بعد ذلك قصد قلعة جعبر^(١) سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م وحاصرها وبينما هو مقيم عليها قتل^(٢) فخر المسلمون مجاهداً "لا يرى المقام بل لا يزال ظاعناً إما لرد عدو يقصده، وإما لقصد بلاد عدوه، وإما لغزو الإفرنج، وسد الثغور..."^(٣). وبعد وفاة عماد الدين، خلفه ابنه نور الدين زنكي الذي سار على النهج الذي رسمه والده في تكوين جبهة إسلامية قوية تضاهي الصليبيين وتخلص البلاد منهم، فقد ارتأى القائد المسلم أنه لا تستكمل قوة المسلمين لطرد الصليبيين، إلا بتوحيد مصر والشام، فيتجاذب القطران الغزاة على العدو: مصر "بعسكري بره وبحره، ونور الدين من جانب سهل الشام ووعره"^(٤). وكانت دمشق من أهم المدن التي تطلع إليها نور الدين، نظراً لتوسطها بين حلب والسواحل الشامية إضافة إلى ضعف حكامها وتذبذبهم، وطمع الغزاة في الاستيلاء عليها. لذا أرسل نور الدين إلى مصر حملات عديدة، تمكن في الأخيرة من إسقاط الدولة الفاطمية وتوحيد مصر والشام، في كيان عسكري واحد تحت قيادته^(٥). وتابع نور الدين عملياته العسكرية التي شنّها ضد المد الصليبي، فبدأ يعمل على استعادة إمارة إنطاكية، التي خاض فيها، معارك مظفرة، استطاع أن يحرر فيها معظم الأراضي الواقعة شرقي نهر العاصي، ثم توجه بعد ذلك إلى تحرير إمارة الرّها، ومنها إلى إمارة طرابلس سنة ٥٤٣هـ/١١٤٩م^(٦)، أما إمارة بيت المقدس استطاع نور الدين أن يعقد هدنة مع ملكها لمدة سنة^(٧) إلا إن الصليبيين نقضوا العهد، فنهض نور الدين لتأديبهم سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م وهزمهم وألحق بهم خسارة كبيرة^(٨).

-
- (١) جعبر: قلعة على الفرات بين بالس والرقّة. الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٣١٣.
- (٢) ابن واصل، جمال الدين، مفرج الكروب في إخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٥٣، ج ٢١، ص ٩٨.
- (٣) أبو شامة، الرّوضتين في أخبار الدولتين: النورية والصلاحية، ج ١، ص ٨٥.
- (٤) أبو شامة، الرّوضتين في أخبار الدولتين: النورية والصلاحية، ج ١، ص ٦٢٤، والعبارة لصلاح الدين.
- (٥) ابن واصل، مفرج الكروب في إخبار بني أيوب، ج ١، ص ٢٠٠.
- (٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١١، ص ١٣٢.
- (٧) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٥١٦-٥١٧.
- (٨) المرجع نفسه، ص ٥٢٢. ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، ج ٢، ص ٣٠٨.

تابعت جيوش نور الدين مسيرتها في مقارعة الصليبيين، مستعيدة الكثير من القلاع والحصون، وفي سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٤م، توفي نور الدين زنكي، فاضطربت بلاد الشام اضطراباً شديداً، وخاصة أن ابن نور الدين كان لا يزال صغيراً^(١)، فتطلع صلاح الدين الأيوبي إلى ملكها، فأرسل صلاح الدين إلى الخليفة العباسي رسالةً، يسأله فيها تقليداً جامعاً بكل ما تشتمل عليه بلاد نور الدين، مبيناً "أن المراد هو كل ما يقوي الدولة.... ويجمع الأمة ويحفظ الألفة..... ويفتح بقية البلاد"^(٢). وذكر في رسالته أنه لا يتمكن من الصليبيين وهو في مصر لـ "بُعد المسافة، وانقطاع العمارة، وكلال الدواب.....، وإذا جاورناه كانت المصلحة بادية، والمنفعة جامعة، واليد قادرة، والبلاد قريبة، والغزوة ممكنة، والميرة متسعة، والخيل مستريحة....."^(٣).

وبعد أن تسلم صلاح الدين مُلكَ بلاد الشام تطلع إلى شن بعض الهجمات العسكرية، على عدد من المواقع الصليبية بهدف تدميرها، ففي سنة ٥٧٣هـ / ١١٧٧م، هاجم القائد صلاح الدين الداروم^(٤) وغزة وعسقلان ثم التقى بالصليبيين في مرج العيون سنة ٥٧٥هـ / ١١٧٩م وهزمهم هناك^(٥) وفي السنة نفسها هاجم حصن بيت الأحزان^(٦) واستطاع استعادته.

تابع صلاح الدين عمليات التحرير والتوحيد، فعقد العديد من المهادنات مع إمارتي طرابلس وبيت المقدس، التي كان لها أثرٌ واضحٌ في استكمال توحيد بلاد الشام، ثم بدأ يكتب إلى جميع البلاد يدعوهم إلى الجهاد، ويحثهم عليه، ويأمرهم

(١) ابن شداد، بهاء الدين، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٦٤، ص ٥٠.

(٢) انظر هذه الرسالة في: أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين: النورية والصلاحية، ج ١، ص ٦٢٢.

(٣) انظر هذه الرسالة في: المرجع نفسه، ج ١، ص ٦٢٢.

(٤) الداروم: قلعة بعد غزة للقاصد إلى مصر. الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ١٨٧.

(٥) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج ٢، ص ٧٥.

(٦) بيت الإحزان: مخاضه على نهر الأردن، ويطلق عليه اليوم جسر بنات يعقوب. الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٣١٤.

بالتجهيز له بغاية الإمكان^(١) فنازل الصليبيين في غير ما موقعه، واستهل عملياته العسكرية بالإغارة على الكرك، ثم أرسل إلى ابنه الملك الأفضل يأمره إن يرسل قطعة من الجيش إلى عكا لتدميرها ففعل^(٢) ثم جهز صلاح الدين جيوشه، وسار نحو طبرية، مما دفع الصليبيين لتجهيز جيوشهم استعداداً للقاء الجيوش الإسلامية، فالتقى الجمعان في موقعة حطين وكسر الصليبيون كسرة عظيمة^(٣)، وتعد معركة حطين " مفتاح الفتوح الإسلامية "^(٤) وتمكن في مدة وجيزة من أن يحرر معظم البلاد الإسلامية وعلى رأسها بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م. أقضى تحرير بيت المقدس مضاجع الغزاة فجهزوا حملة صليبية ثالثة، أسفرت عن احتلال عكا من جديد سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م، وتوقيع صلح بينهم، كان من أهم بنوده أن ييسط الفرنجة نفوذهم على المدن الساحلية من صور إلى يافا.

وفي سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م، توفي صلاح الدين الأيوبي، بعد سلسلة من الفتوحات الكبيرة ولكن حصل الذي لم يكن في الحسبان، إذ استعزّ بين أبنائه وذويه صراعٌ على السلطة، مما أتاح للفرنجة أن يحققوا مكاسب متنوعة كان من أعظمها احتلال عكا من جديد وقد بقيت بأيديهم حتى سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م. ويعلق القاضي الفاضل قائلاً: "أما هذه البيت فإن الآباء منه اتفقوا فملكوا، والأبناء اختلفوا فهلكوا"^(٥).

وإذا انتقلنا إلى الحديث عن البنية الاجتماعية للمدن الشامية الكبرى، فإننا نلاحظ أن هذه المدن ضمت عناصر وأجناساً متنوعة، ولعل أبرز تلك الأجناس، الأتراك والأكراد والعرب والفرس والأرمن والروم بالإضافة إلى سلالات أوروبية

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١١، ص ٥٢٩.

(٢) المرجع نفسه، ج ١١، ص ٥٣٠.

(٣) الأصفهاني، العماد، الفيح القسي في الفتح القدسي، تحقيق: محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ت)، ص ٧٧.

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج ٢، ص ١٨٨.

(٥) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، ج ٣، ص ٤٢.

استوطنت البلاد وتأقلمت فيها^(١). كان أهم عنصر فيه العرب، فهم السكان الأصليون لبلاد الشام، يشكلون الغالبية العظمى، إذ انتشرت قبائلهم في أنحاء متفرقة منها، ولعل أبرز هذه القبائل البدوية قبيلة طي وكلاب وبنو ربيعة وعقيل، أما العناصر الأخرى فكانت ثانوية، وعلى الرغم من أن العرب قد فقدوا سلطانهم السياسي في بلاد الشام خلال القرن ٦هـ إلا أنها كان لها الدور الفعّال في الحياة السياسية والاجتماعية، فقد لعبت القبائل العربية دوراً بارزاً في المجتمع الشامي، فساندوا الحكام تارة، وناوؤوهم تارة أخرى.

ومن الجدير بالذكر أن نضيف إلى العناصر السابقة الإفرنج الذين غزوا بلاد الشام وانتشروا على شكل جاليات صغيرة داخل مدن أو قلاع، لكنهم لم يتمتعوا فيها بالأمان بسبب الهجمات الإسلامية المتوالية عليها، لذلك فضل بعضهم العودة إلى بلادهم. كما ضم المجتمع الشامي فئات دينية ومذهبية متعددة، كمذهب أهل السنة والجماعة وهو المذهب السائد في البلاد بصورة عامة. ومن الفئات الدينية التي ضمها المجتمع المحلي أهل الذمة واليهود والنصارى، وقد وصف ابن جبير كنيسة لهم داخل دمشق، وأشار إلى موقف المسلمين منهم^(٢)، كما تحدث ابن جبير عن العلاقات الحسنة بين مسلمين ونصارى جبل لبنان وإيواء هؤلاء لبعض المسلمين المنقطعين^(٣).

أمّا النظام الاجتماعي الذي سيطر على البلاد هو النظام الإقطاعي، وهو نظام غريب وطارئ، بدأ تطبيقه منذ أيام السلاجقة واستمر طوال عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك، وأدّى هذا النظام إلى تنظيم عسكري قوي ودقيق، مكن المسلمين من الصمود أمام فرسان أوروبا ونظمها العسكرية طوال زمن الحروب الصليبية^(٤). ومن آثار هذا النظام، تقسيم المجتمع الإسلامي إلى طبقات، تقوم فيها

(١) رمضان، أحمد، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، الجهاز المركزي للكتب الجامعية، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٤٩ - ٦٤.

(٢) ابن جبير، رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، ١٩٨٠، ص ٢٥٥.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٥٩.

(٤) رمضان، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، ص ٨٥ - ١١٦.

سدود وحواجز، وأولى تلك الطبقات: طبقة الأمراء وأصحاب الاقطاعات والتجار والأثرياء والأمراء والسلاطين، والطبقة الثانية: طبقة رجال الدين الذين لقبهم المؤرخون، بأهل العمامة، قاموا بدراسة أمور الدين وفقهها، ونالوا مكانة عند الحكام، أما الطبقة الثالثة: طبقة عامة الفلاحين وصغار التجار والصناع الذين يعملون، إما أجراء في الأرض أو كادحين في خدمة القصور وعمل السلاح وإعداد آلة الحرب^(١).

ومن مساوئ ذلك النظام الإقطاعي الطبقي، أن توزيع الثروة في المجتمع لم يكن معتدلاً، وهذا كان له أثر بالغ في شيوع الفساد الخلقي، كما كان طبيعياً أن يظهر أثر ذلك في أدب العصور، لذلك تذرر القاضي الفاضل^(٢) في رسالة أرسلها إلى السلطان إلى السلطان صلاح الدين، شرح فيها حالة الفساد عند المسلمين في ذلك العصر فيقول: "والمملوك ينهي إلى الله تعالى لا ينال ما عنده إلا بطاعته ولا تفرج الشدائد إلا بالرجوع إليه والامتثال لأمر شريعته، والمعاصي في كل مكان بادية والمظالم في كل موضع فاشية، وقد طلع إلى الله منها ما لا يتوقع بعدها إلا ما يستفاد منه"^(٣).

انتشر التصوف في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية بصورة واضحة، وقد حظي التصوف باهتمام الحكام ورعايتهم، ووصف ابن جبير في رحلته الخوانق التي كانوا يقيمون فيها، وذكر أنها قصور مزخرفة^(٤)، ووصف الصوفية بأنهم الملوك بهذه البلاد، لأنهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها، وأسكنهم في قصور تذكرهم

(١) سلام، محمد زغلول، الأدب في العصر الأيوبي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٤٧.

(٢) هو عبد الرحيم بن علي بن السعيد اللخمي المعروف بالقاضي الفاضل، وزير من أئمة الكتاب ولد بعسقلان بفلسطين سنة ٥٢٩هـ وانتقل إلى الإسكندرية ثم إلى القاهرة وتوفي بها سنة ٥٩٦هـ وكان من المقربين إلى السلطان صلاح الدين ولم يخدم بعده أحداً. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٦، ص ١٥٦.

(٣) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين: النورية والصلاحية، ج ٢، ص ١٦٣ - ١٦٤.

(٤) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٥٦. وانظر: أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين: النورية والصلاحية، ج ١، ص ١٠، ٢٢، ٢٣.

قصور الجنان، فالسعداء الموفقون منهم قد حصل لهم -بفضل الله- نعيم الدنيا والآخرة، وقد أسهموا المتصوفة بقسط وافر للمشاركة في الأحداث الكبرى في بلاد الشام في القرن السادس الهجري، إذ كان لهم دور بارز عندما هاجم الصليبيون دمشق في حملتهم الثانية، فهب المتصوفة للدفاع عنها^(١).

وقد عانت بلاد الشام في القرن السادس الهجري، الفقر الشديد والأوبئة الفتاكة وسنوات الجفاف، التي أدت إلى غلاء الأسعار وفناء كثير من الناس، ناهيك عن الكوارث الطبيعية كالزلازل المتتالية التي كان من أعقابها انهدام الأسوار والقلاع والدور، إضافة إلى الحرائق، أما الغزو الصليبي فكانت له آثار واضحة في المجتمع الشامي، فقد ذكرنا أن الغزاة كانوا يعيشون في كل أرض يدخلونها.

فكان من الطبيعي أن يجري والزكيون الأيوبيون كثيراً من الإصلاحات الاجتماعية، فقد ضبط عماد الدين زنكي الأمور، فحقق الأمن الشامل بحيث يعجز القوي عن المعتدي على الضعيف^(٢) فقصد الناس بلاده واتخذوها دار إقامة^(٣)، ونهج نور الدين سياسة العدل "مع أوامر الشرع ونواهيه، وألزم بذلك أتباعه وذويه"^(٤) ورفع عن الناس الأثقال فلم يترك بلد من بلاده ضريبة ولا مكساً ولا عشراً إلا وأطلقه" فأمنت بلاده مع سعتها، وقلّ المفسدون ببركة العدل وإتباع الشرع المطهر^(٥). أما صلاح الدين فقد أجرى إصلاحات واسعة، واسقط المكوس عن الرعية ولم يقر من الضرائب إلا ما هو شرعي.

ومن الجدير بالذكر، أن ندرك إحالة كل من نور الدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي، بالحرب التي شنها الإفرنج، والتي مثّلت تحدياً كبيراً للمسلمين وتهديداً للإسلام، وإن المواجهة تقتضي بث الروح الإسلامية في نفوس الأمة، لذا اهتم القادة

(١) ابن منقذ، أسامة، كتاب الإعتبار، تحرير: فيليب حتي، جامعة برنستون، ١٩٣٠، ص ١٢٢،

وانظر: أبو شامة، الرّوضتين في أخبار الدولتين: النورية والصلاحية، ج ١٠، ص ٢٢، ٢٣.

(٢) أبو شامة، الرّوضتين في أخبار الدولتين: النورية والصلاحية، ج ١، ص ١١٠.

(٣) المرجع نفسه، ج ١، ص ١١١.

(٤) المرجع نفسه، ج ١، ص ١٤.

(٥) المرجع نفسه، ج ١، ص ١٦.

بإقامة المدارس والمساجد والخوانق والرباطات، وترميم ما هو قائم منها وقد قدّم ابن جبير وصفاً تفصيلياً لذلك، إذ كان يقف في كل مدينة يزورها عند مساجدها ومدارسها وربطها وأسواقها ومزاراتها، ومزاياها الدينية والتاريخية والطبيعية^(١). فقد أعاد نور الدين بناء مسجد حلب بعد الحريق الذي دبّ فيه، وقدّم وصفاً دقيقاً له ورسم صورة جميلة لمنبره فقد "ارتفع كالتاج العظيم على المحراب وعلا حتى اتّصل بسمك السقف، وقد قوّس أعلاه وشرفّ بالشرف الخشبية..... وهو مرصّع كله بالعاج والأبنوس....."^(٢) وقال أيضاً: "هذا الجامع من أحسن الجوامع وأجملها"^(٣). ووصف ابن جبير الجامع الأموي بدمشق، وصفاً بديعاً كما وصف حجرة الساعة الدقاقة به، وسماها المنجوبة كتسمية أهل الأندلس في ذلك العصر للساعات الدقاقة التي اشتهرت بها بلادهم، كما عمد إلى وصف موقعه ومساحته وأبوابه وشمسيّاته وقبابه وصحنه وبلاطه وأعمدته وجدرانه وزخرفته، غير أن الملفت لنظر ابن جبير تعدد أوجه النشاطات فيه، وتعليم القرآن الكريم للصبيان، حيث يستند المعلمون إلى سوارى المسجد، ويجلس أمام كل واحد منهم صبي يلقّنه القرآن، وقد كان لهذه السوارى وقف معلوم يأخذه المستند إليها للمذاكرة والتدريس، وللصبيان أيضاً على قراءتهم جراية معلومة^(٤). بالإضافة إلى الحلقات الجماعية التي كانت تعقد لقراءة أجزاء من القرآن الكريم كالمجتمع السبعي والمجتمع الكوثري، وكانت أوراق المسجد وساحاته ومرافقه تعجّ بالعبّاد والمتعلمين والمنقطعين للطلب، ومن هذه المرافق التي أعجب بها ابن جبير، وجعلها من مآثر نور الدين وصلاح الدين: مرافق الغرباء، الزوايا، الصّوامع، المقصورات، صحن المسجد، السّقايات. ومن العناصر التي اهتمّ بها ابن جبير، وهو يصف مظاهر العمران الاجتماعي في بلاد الشام، الأسوار والقلاع وما توفره للمدن من قوة ومنعة، ولعل

(١) الرقب، شفيق، دراسات اجتماعية في الأدب الأيوبي والمملوكي، دار يافا العلمية، عمان، ٢٠٠٩، ص ٢٩.

(٢) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٣١٧.

(٣) المرجع نفسه، ص ٣١٦.

(٤) المرجع نفسه، ص ٣٤١.

اهتمامه بها يعود إلى أجواء الحرب المسيطرة على المنطقة آنذاك، فيسترسل ابن جبير بوصف قلعة حلب ويصوّر حصانتها الطبيعية وإحكام بنائها وعلوها، فهي "شهيبة الامتاع، بائلة الارتفاع، معدومة الشبه والنظير في القلاع"^(١). أما سور القلعة فيضم أبراجاً منتظمة، فيها الغرف الشاهقة الحصينة "قد تفتحت كلها طيقاناً وكل برج منها مسكون وداخلها المساكن السلطانية والمنازل الرفيعة والملوكية"^(٢). ولا يغفل ما ذكره ابن جبير عن أسوار حمص، فوصف قدمها، وصلابة حجارته وإحكام بنائها وقوة أبوابها، فهي "غاية العتاقة والوثاقة، مرصوص بنائها بالحجارة الصّم السود، وأبوابها أبواب حديد، سامية الإشراف، هائلة المنظر، رائعة الإطلال والأناقة، تكتنفها الأبراج المشيدة الحصينة"^(٣).

وعلى الرغم مما كان يعانيه ديار الشام من أزمت اقتصادية، وكوارث طبيعية، وحروب صليبية، إلا أن هذا لم يفقد المدن الشامية نشاطها وازدهارها الثقافي والفكري، كما لم يمنع من ظهور حركات البعث والعلم والأدب، الذي ازدهر ازدهاراً ملحوظاً آنذاك، وقد اعتمدت حركة البعث العلمي في ذلك العصر على التراث الإسلامي الزاخر، بهدف إحياء شعائر أهل السنة، فاهتموا بالقرآن الكريم وتفسيره، وبالحديث الشريف وجمعه وحفظه وشرحه^(٤).

وقد تبنى الأيوبيون والزنكيون الحركة الفكرية في القرن السادس الهجري، وكانت من أهم الظواهر الثقافية في هذا العصر انتشار المدارس وكثرتها بهدف تثبيت الهوية الإسلامية لهذه البلاد، وكان لكل مدرسة من هذه المدارس مكتبة خاصة، تضم الكتب في شتى العلوم والمعارف، وشغف أهل ذلك العصر، باقتناء الكتب، مما أدّى إلى ازدهار المكتبات الخاصة مثل مكتبة أسامة وابن العديم وابن القفطي، واهتم الأمراء في قصورهم بإفراد جناح خاص للمكتبة فيها ومن أبرزها

(١) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٣١٤.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣١٥.

(٣) المرجع نفسه، ص ٣٢٣.

(٤) سلام، الأدب في العصر الأيوبي، ص ٧٦.

مكتبة الملك المنصور صاحب حماة فقد جمع فيها من كتب العلوم عدداً كبيراً^(١). وقد وصف ابن جبیر في رحلته المدارس التي كانت في المدن التي حلّ بها، مثل مدينة دمشق وحمص وبلعبك ومنبج، ووقف وقفات مطولة عند المدارس في دمشق، ووصف الأجواء العلمية المريحة التي كانت سائدة فيها، ومنها مدرسة نور الدين زنكي، إذ وصف بعض مرافقها وعدّها من أحسن مدارس الدنيا منظراً، "وهي قصرًا من القصور الأنيفة ينصب فيها الماء في شاذروان وسط نهر عظيم، ثم يمتد الماء في ساقبيه مستطيله إلى أن يقع في صهريج كبير وسط الدار، فتحار الأبصار في ذلك المنظر"^(٢). ووصف ابن جبیر مدرسة للحنفية الذي اتصل بالجانب الغربي من جامع حلب، تتاسب الجامع حسناً وإتقاناً وصناعة، فهما في الحسن روضة تجاور أخرى، وهذه المدرسة من أحفل ما شاهدناه من المدارس بناءً وغبابةً وصناعةً، ومن أطرف ما يُلحظ فيها أنّ جدارها القبلي مفتّح كلّ بيوتاً وغرفاً ولها طيقان يتصل بعضها ببعض، وقد امتد بطول الجدار عريش كرمٍ مثمرٍ عنباً، فحصل لكل طاق من تلك الطيقان قسطها من ذلك العنب متديلاً أمامها، فيمدّ الساكن فيها يده ويجتنيه متكئاً دون كلفة ولا مشقة"^(٣).

ولم يقتصر الأمر على المدارس في التعليم، وإنّما وجدت حلقات العلم التي كانت تعقد في المساجد، فقد كان الجامع الأموي بدمشق يزهر بحركات علمية في كل زاوية من زواياه وفيه حلقات لتدريس الطلبة، وللمدرسين فيه إجراء واسع^(٤). أما شيوخ تلك المدارس فهم أساس الحركة الثقافية، إذ كانوا يشدون الرحال إلى مختلف المراكز العلمية في أنحاء العالم الإسلامي، فيسافرون إلى العراق ومصر وخراسان وما وراء النهر ويحصلون في رحلاتهم تلك علوماً كثيرة^(٥)، وكانت هذه المدارس تدرّس الفقه،

(١) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج ٤، ص ٨٠.

(٢) ابن جبیر، رحلة ابن جبیر، ص ٣٥٨.

(٣) المرجع نفسه، ص ٣١٧.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٤٤.

(٥) الصفدي، خليل بن إبيك، الوافي بالوفيات، مكتبة احمد الثالث، بيروت، (د.ت)، ج ٢٣، ص ١٢،

وانظر: الكتبي، محمد بن شاكر، عيون التواريخ، تحقيق: فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم،

وزارة الإعلام العراقية، بغداد، ١٩٧٧، ج ١٢، ص ١٩٤.

والعلوم الشرعية، والأصول والنحو، فتتوعد بذلك مجالات الإنتاج الفكري آنذاك، واصطبغ هذا الإنتاج بروح العصر الذي غلب عليه طابع الجهاد^(١). لذلك اهتم المؤرخون المسلمون بتوثيق أحداث الصراع بين المسلمين والصليبيين، وكتابة السير لأبطال ذلك الصراع، كما عنوا بتاريخ البلدان الإسلامية وتبيان فضائلها ومكانتها الدينية للتأكيد على عروبته وإسلاميتها ومن هذه المؤلفات "الفيح القسي في الفتح القدسي" و"البرق الشامي".

وكلاهما للعماد الأصفهاني و"تاريخ دمشق" لابن عساكر ومن الجدير أن نشير في هذا الموطن إلى ما قاله إحسان عباس بشأن الصورة الثقافية لهذا العصر، إذ أشار إلى ازدهارها في معظم النواحي الثقافية والسبب يعود إلى تعاظم الحس التاريخي بما ألف من كتب في التاريخ والتراجم ومن كتب في السير والسير الذاتية، وفي النحو والطب والعلوم الحكيمة والفقه....^(٢).

وازدهر النشاط الاقتصادي في المدن الشامية، فقد ظلت قوافل التجارة تتردد بين المدن الشامية، وبين مدن الشام والعراق^(٣) وبين المدن الإسلامية والمدن الخاضعة لسيطرة الفرنجة، وكانت هذه القوافل تحت الحماية العسكرية، فيرافقها الفرسان حتى تبلغ مأمنها^(٤). ففي بداية الحروب الصليبية كان الفرنج كثيرون على القوافل التجارية الذاهبة أو الآتية بين دمشق ومصر، حتى استولى صلاح الدين على الكرك والشوبك، وأعاد الانتظام إلى هذه التجارة، وكانت قوافل التجار (البرجاسية) في مأمن من الحرب، فلا يتعرض لها المحاربون من المسلمين والفرنجة، وقد ذكر لنا ابن جبير في رحلته متعجباً فقال: "ومن أعجب ما يحدث به في الدنيا إن قوافل

(١) بدوي، أحمد أحمد، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، دار نهضة مصر، ط٢، ١٩٧٩، ص٤٠٦.

(٢) عباس، إحسان، تاريخ بلاد الشام في عهد الاتابكة والأيوبيين، منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام، ١٩٩٨م، ص٣٢٨.

(٣) ابن منقذ، كتاب الاعتبار، ص١٨٢.

(٤) المرجع نفسه، ص٥٧، ٧٠، ٨٤، ٧٩، ١٨٢.

المسلمين تخرج إلى بلاد الإفرنج وسببهم يدخل إلى بلاد المسلمين^(١) وفي موطن آخر " ومن أعجب ما يُحدّث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين، وربما يلتقي الجمعان، ويقع المصاف بينهم ورفاق المسلمين والنصارى تخلف بينهم، دون اعتراض عليهم^(٢).

ويستدل من رحلة ابن جبیر، أن المدن الشامية التي زارها شهدت نشاطاً تجارياً واسعاً، فقد تحدّث عن الأسواق وكيفية بنائها وتصميمها، وإعجابه الكثيف بأسواق مدرسة حلب فالبلد "واسع الأسواق كبيرها، متصلة الانتظام، مستطيلة تخرج من سماط صنعة أخرى، إلى إن تفرغ من جميع الصناعات الكثيفة وكلها مسقّفة بالخشب فسكانها في ظلال وارفه، فكل سوق منها تقيّد الأبصار حسناً وتستوقف المستوفر عجباً"^(٣). أما أسواق منبج "وسككها فسيحة متسعة، ودكاكينها وحوالياتها، كأنها الخانات أو المخازن اتساعاً وكبراً، وأعلى أسواقها مسقّفة، وعلى هذا الترتيب أسواق أكثر مدن هذه الجهات"^(٤).

وقد تفوقت التجارة الخارجية على التجارة الداخلية، والسبب في ذلك يعود إلى أن الفرنج كانوا يعتمدون على أساطيل المدن الإيطالية، فلم تكن هذه المدن ناقلة للسلع غرباً وشرقاً، وإنما كانت ذات حصص في المدن الواقعة تحت سيطرة الفرنج، وتتمتع بامتيازات متنوعة سواء إقليمية، أو في الميدان الحقوقي أو في مجال الإعفاء، فعلى سبيل المثال مدينة (جنوه) تتمتع بامتيازات وتقدم خدماتها للصليبيين، أما التجارة الداخلية فقد قامت بالعديد من الإصلاحات لطرق القوافل، وإنشاء الخانات التي يأوي إليها التجار والمسافرون، وقد أعجب ابن جبیر بحصانتها، وشبهها بالقلاع في المنعة والوثاقة^(٥)، ولعل أبرز هذه الخانات التي ذكرها ابن جبیر، خان

(١) ابن منقذ، كتاب الاعتبار، ص ٢٧١.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٦٠.

(٣) ابن جبیر، رحلة ابن جبیر، ص ٣١٦.

(٤) المرجع نفسه، ص ٣١٢.

(٥) المرجع نفسه، ص ٣١٨.

بناء صلاح الدين الذي يعرف بـ (خان السلطان)، وقد وصف ضخامته ومنعته وحسن عمارته وتوفر أسباب الراحة فيه^(١).

أمّا الزراعة فقد استمرت في الشام كما كانت في العصور السابقة، إذ ازدهرت الزراعة في الأجزاء الشمالية من بلاد الشام، ولاسيما أنها تتميز بخصوبة أراضيها وغزارة الأمطار، إضافة إلى وفرة الأيدي العاملة من الفلاحين (العرب والأرمن والروم)، الذين كانوا يعملون في الإقطاعات الواسعة لقاء أجر معلوم^(٢). ولعل من أبرز المحاصيل الزراعية التي كانت تزرع في المروج الواسعة من شمال بلاد الشام آنذاك الزيتون والقطن والكرمة وأنواع الفواكه والقمح^(٣) بالإضافة إلى البساتين الصغيرة داخل القرى والمدن، والغابات الكثيفة التي كانت تستغل في صناعة الأخشاب^(٤) وقد تضمن المشهد الطبيعي لبلاد الشام وصفاً للمناطق التي زارها ابن جبير، فقد أعجب بالمرأى العام لمنبج، ووصف بساتينها التي تحف برائحة الأزهار، فيقول: " صقيل، ومجتلاها جميل، ونسيمها ارج النشر عليل، نهارها يندى ظلّه وليلها كما قيل فيه سحر كلّه^(٥)."

لذلك رسم لنا ابن جبير البساتين الكثيفة ذات الثمار المختلفة والمياه الغزيرة المنبثقة من باطنها، وفي ذلك يقول: "تحف بغربها وبشرقيها بساتين ملتفة الأشجار، والماء يطرد فيها ويتخلل جميع نواحيها، وخصّ الله داخلها بآبار معينة، شهديه العذوبة، سلسبيله المذاق، تكون في كل دار منها البئر، والبئر، وأرضها كريمة، تُستنبط مياهها كلها...."^(٦). ويستشف من رحلة ابن جبير في بلاد الشام، ازدهار الزراعة في بلاد المعرة، فهي " سواد كلها، ويتصل التفاف بساتينها وانتظام قراها

(١) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٣٢٥.

(٢) ابن منقذ، كتاب الاعتبار، ص ١٥٣، ٥٠، ٣١، ٨٢، ١٥١.

(٣) المرجع نفسه، ص ٤٠، ٤٣، ١٥١، ١٥٧.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٤٢.

(٥) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٣١١.

(٦) المرجع نفسه، ص ٣١١.

مسيرة يومين، وهي أخصب بلاد الله وأكثرها أرزاقاً^(١). واحتفل ابن جبير بالتوطئة لمدينة دمشق، فوصف مشهدها الطبيعي في صورة تتداخل فيها الألوان والأشكال والحركات في سياق جميل يشخص المدينة في صورة عروس تبرجت للناظرين، فهي " جنة المشرق، ومطلع حسنه المؤنق المشرق، وهي خاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها، وعروس المدن التي اجتليناها، وقد تحلت بأزاهير الرياحين، وتجلت في حلل سندسية من البساتين، وحلت من موضوع الحسن بمكان مكين، وتزينت منصتها أجمل تزيين... " ^(٢).

وقد نعمت بلاد الشام بثروة حيوانية كبيرة في القرن السادس الهجري، وهي تشتمل الحيوانات الداجنة من خيل وبغال وبقر وأغنام والطيور البرية، وقد ذكر أسامة أنواعاً كثيرة من الحيوانات البرية في معرض حديثه عن تجاربه في الصيد في شيزر وغيرها، وغالباً ما كانت تتكاثر هذه الحيوانات في الأزوار المنتشرة حول الفرات^(٣)، ولم يكن الصيد المصدر الوحيد للثروة الحيوانية، وإنما كان للغنائم التي كان يحرزها المسلمون من الفرنجة مصدراً ثانياً لها، فعندما دخل المسلمون مرج افامية ساقوا منه " غنيمة كبيرة من الجواميس والبقر والغنم^(٤) " وذكر أسامة حكايات متفرقة تبين اهتمام القوم بتربية الحيوانات واعتنائهم بها، فقد وصف أسامة مشهداً بحماة " وقد حضر القراء والمكبرون وخلق عظيم من أهل البلد " فسأل صاحب حماة عن الميت، فأخبره " أنه الباز اليحشور^(٥) ". وأنه عمل له تابوتاً وجنازة وقبراً لأنه كما يقول يستحق ذلك، وفي موطن آخر يذكر أسامة أنه كانت في دارهم " فهده لها جارية تخدمها، وتسرح جسمها بالمشط ولها في جانب الدار قطيفة مطوية تحتها حشيش يابس..... " ^(٦).

(١) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٣١٩.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٢٧.

(٣) ابن منقذ، الاعتبار، ص ١٠٦، ٢٢٢، ٢٢٦.

(٤) المرجع نفسه، ص ٥٨، ٧٦.

(٥) المرجع نفسه، ص ٢٠٦.

(٦) المرجع نفسه، ص ٢٠٨.

ولابد للإشارة إلى العلاقات الاجتماعية التي كانت سائدة بين المسلمين والفرنجة آنذاك، إذ إن الاختلاط بين الفئتين في بعض المدن كان سبباً لاطلاع كل من الفريقين على بعض عادات الآخر، وتحدث شفيق الرقب عن نمطين من هذه العلاقات، الأول قام بين الفرنجة والمسلمين الذين لم تخضع ديارهم لسيطرة الغزاة، والثاني نشأ بين الفرنجة والمسلمين في البلاد الإسلامية المحتلة^(١)، بيد إن النمط الأول كان يتخذ صورة العلاقات الشخصية أحياناً، والعلاقات الشخصية أحياناً، والعلاقات التجارية من جهة أخرى، ورابطة الزواج المتبادل من جهة ثالثة، وقد ذكر أسامة بن منقذ من خلال الزيارات المتكررة إلى الأراضي التي سيطرت عليها الفرنجة، إذ أتاحت له أن يتجول فيها، ويخالط ناسها، ويقوم علاقات شخصية مع فرسانها، ولعل من هذه العلاقات الشخصية أن فارساً إفرنجياً لازمه وأنس به وانعقدت بينهما المودة والمعاشرة وصار الفارس يدعوه "أخي"^(٢)، وكذلك فقد طلب الفارس من أسامة أن يرسل معه ابنه إلى أوروبا، "يبصر الفرسان ويتعلم العقل والفروسية"^(٣).

ويستشف من العلاقات بين المسلمين والفرنجة، أنها لم تكن قائمة على الجوانب الشخصية فحسب وإنما كان للتجارة دور في ذلك، وقد ذكرنا سابقاً إن الطرق بين المدن الإسلامية والبلاد التي تخضع لسيطرة الفرنجة سالكة، فقد كان الرعايا والتجار من الفريقين يدخلون البلاد دون أن يعترض طريقهم أحد، وكان لاتفاقيات الهدنة التي كانت تعقد بين المسلمين والفرنجة، آثار واضحة وراسخة في تنظيم هذه العلاقات، ومن هذه الهدنة تلك التي أبرمت بين الظاهر بيبرس وملكة بيروت سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨م^(٤)، ومما نصت عليه الهدنة أن يكون جميع المتمردين من البلاد التي تشتملها الهدنة "وإليها آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم وبضائعهم من

(١) الرقب، دراسات اجتماعية في الأدب الأيوبي والمملوكي، ص ٩٦ - ٩٧.

(٢) ابن منقذ، الاعتبار، ص ١٦٩.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٦٩.

(٤) انظر نص الهدنة في: القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج ١٤، ص ٣٩ - ٤٢.

الملكة فلانة وغلماها، وجميع من في حكمها وطاعتها: براً وبحراً، ليلاً ونهاراً، ومن مراكبها وشوانيتها.

أما الأراضي فقد كان المسلمون والفرنجة يستغلونها مناصفة، وغالباً ما تتوسط هذه الأراضي المناطق التي تخضع لسيطرة كل طرف، وقد اصطلح كتاب الدواوين آنذاك على تسمية هذه الأراضي "بلاد المناصفت" ^(١). ومن هذه الأرض تلك التي كانت تقع بين مدينة بانياس وحصن هونين الذي كان يقيم فيه الفرنجة، فقد كانت عمالة "تلك البطحاء بين الإفرنج والمسلمين، لهم في ذلك حد يعرف بحد المقاسمة، فهم يتشاطرون الغلة على استواء، ومواشيهم مختلطة، ولا حيف يجري بينهما فيها...." ^(٢).

أما رابطة الزواج المتبادل فقد كانت ممكنة الحدوث، لكن على قلة، فقد ذكر أسامة بن منقذ حادثة واحدة تمثل تزوج امرأة مسلمة من رجل إفرنجي، وكان للمرأة ابن من زواج سابق، فكانت تتعاون هي وابنها على قتل من يصادفونه من حجاج الفرنجة، ولما ظفروا بالابن عاقبوه ثم سملوا عينيه ^(٣).

على إنه يجب أن نتذكر أن عوامل الافتراق بين الفريقين كانت أقوى من عوامل التلاقي، إذ كان حاجز الدين واختلاف العادات والطبائع في مقدمتها، وعبر أسامة بن منقذ عن ذلك بعبارة موجزة استوحاها من تجاربه مع الفرنجة حيث قال فيهم: "وهم جنس ملعون لا يألفون لغير جنسهم" ^(٤).

(١) انظر: حمادة، محمد ماهر، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٣، ١٩٨٦، ص ٢٦١، ٢٧٠، ٢٧٦، ٢٧٩، ٢٨٣، ٢٩١.

(٢) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٢٧٣.

(٣) ابن منقذ، الاعتبار، ص ١٣٩.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٦٦ - ١٦٧.

الفصل الأول مدح المدن ووصفها

١.١ مدح المدن ووصفها

يعالج هذا الفصل من الدراسة موضوع المكان وجماليته في الشعر، واقصد بالمكان أينما ورد (المدينة) ومن خلال الوقوف على الشعر المجموع للفترة المحددة واستقرائه -القرن السادس والسابع الهجريين- تبين أن المدينة تشكل ظاهرة بارزة في الشعر هذه المرحلة، إذ تعاضم إحساس الشعراء الشاميين زمن الحروب الصليبية بالمكان، ولاسيما مدينة دمشق إذ قدّموها في صورٍ متعددةٍ تصف مدى تعلقهم بها، وكأنهم يعبرون بطريقة غير واعية عن تشبّثهم بأرضهم في ظرف تاريخي سعى فيه الغزاة إلى انتزاعها من أيديهم وتغيير وجهها الإسلامي.

لم يكن الشعراء الشاميّون زمن الحروب الصليبية بمنأى عن هذا الإحساس العام، فقد كان للأمكنة والمدن حضور واضح في أشعارهم، "فعلاقة الإنسان بالمكان حقيقة بالغة في القدم ووجوده مرتبط بالمكان، وإنه على قدر إحساس الإنسان بأنه مرتبط بالمكان يكون إحساسه بذاته..... والإنسان لا يحتاج إلى رقعة جغرافية يعيش فيها، بل يميل كذلك إلى البحث لنفسه عن رقعة من الأرض، يضرب فيها بجذوره وتتأصل فيها هويته"^(١).

إن علاقة الإنسان بالمكان علاقة تلازمية تلاحمية، "فالإحساس بالمكان - الوطن- إحساس له أصلاته في الوجدان البشري، لأن المكان يصبح هنا هوية تاريخية ووطنية ونفسية، وخصوصاً لأنه يمثل حلقة الوصل المشيمية برحم الأرض -الوطن- الأم، ويرتبط بوداعة وهناء الطفولة وذكريات وغراميات الصبا، ويزداد الإحساس بالمكان تجزراً وعمقاً، إذا ما تعرض المكان للخطر أو الضياع أو الانصهار"^(٢).

(١) إبراهيم، نبيلة، خصوصية التشكيل الجمالي للمكان في أدب طه حسين، مجلة فصول، العددان الأول والثاني، أكتوبر ١٩٩٠م، ص ٤٩.

(٢) المغيـض، تركي، جماليات المكان في شعر عرار، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، مجلد ٤، العدد ٢، ١٩٨٩، ص ١٩٠.

ومن العدل بالمكان أن نذكر هنا تأصل العلاقة وارتباطها بين شعراء الشام وبين المكان -الوطن- الذي تعرض إلى حملات صليبية عاتية، اجتاحت البلاد ومدت أنامل طغيانها عليهم، وانصهرت البلاد وضاعت، فكان من الطبيعي إن ينهض الشعراء ويستنطقوا بما يحمله إحساسهم الفطري والغريزي بانتمائهم للوطن، فالمكان بالنسبة لهم هو المأوى ومسرح الأحداث حتى غدا يأخذ طابعاً مقدساً لأن العلاقة بينهما أصبحت متجذرة.

وقد أثر هذا الحدث في الشعراء المعاصرين له، وأسأل قرائهم فبدا الشعراء يشيدون بفتوحات القادة الإبرار ويصورون المدن الإسلامية ويصفونها بأجمل الصفات، وتكشف جماليات المكان عند الشعراء من خلال ما تعكسه من علاقات بين الناس، فإذا انتقل الإنسان من مكانه المألوف إلى آخر نقيض له في المناخ والطبيعة، فإن عواطفه اتجاه الجديد تتغير وتكتسب ملامح سلبية خاصة إذا فقد في هذا المكان الجديد ما كان يحقق له ذاته، ولو كان الجديد جميلاً فإنه يكتسب صفات الإنسان ويتلون بلونه وكأنه يشاركه أحزانه.....^(١).

ويستشف من خلال طرح العلاقة بين المكان والشعراء، وخاصة عند الشعراء الشاميين عصر الحروب الصليبية، أنهم تمثلوا هذه الغاية، فتارة نراهم يرثون المدن التي تسقط في أيدي الصليبيين، مقدمين تفاصيل دقيقة للأماكن التي وصفوها وخاصة عندما يرون وطنهم يتلاشى ويستلب أمام أعينهم، بيد أنهم لا يستطيعون فعل شيء، فترتجل ألسنتهم بمحاكاة أجمل القصائد والأشعار التي تصور إحساسهم المشوب بالحزن والألم والحسرة على ضياع بلادهم بلاد الشام. وتارة أخرى نراهم قد أعجبوا بهذه المدن وعبروا عن حبهم وإعجابهم بها، فمدحوها وتغنوا بجمالها وتحدثوا عن فضائلها ومزاياها وصوروا بعض مظاهر الحضارة والعمران فيها، وعقدوا مقارنة بينها وبين البلدان الأخرى، وقد حظيت دمشق

(١) الشوابكة، محمد، دلالة المكان في مدن الملح لعبد الرحمن منيف، مجلة أبحاث اليرموك،

بنصيب كبير من هذا المدح والوصف، لعل هذا يعود إلى أنها كانت حاضرة الشام التي يتوافد عليها الشعراء ويلبها في ذلك مدينة حلب.

بيد أن العلاقة بين الشعراء والمدينة قد ساءت، فاحتل شعر الهجاء حيزاً كبيراً من شعر القرن السادس الهجري، وذلك لما جرى من إحداث جسام، وكان مجالاً رحباً لأن يزدهر هذا الفن وتتنوع أغراضه، ولم يكن هجاء المدن ظاهرة جديدة على شعر هذه الفترة، إذ عرف واشتهر في عصور سابقة^(١) واستمر الشعراء نهج سابقهم بل أكثروا من القول فيه بصورة واضحة.

ويتضح مما سبق أهمية المكان على أنه ظاهرة في الشعر، فلم يغفل شعراء الشاميون من ذكر المكان بوصفه مسرحاً للمعارك والحروب والأحداث التي حدثت آنذاك، فالمكان "يمثل مستودعاً لهذه الذكريات ويظل يوحى للإنسان بالفعل المبدع ويمده بالشحنات النفسية والوجدانية التي تعيد له توازنه النفسي، في حالة فقدان ذكرياته مع المرأة أو في حالة حدوث شرخ أو خلخلة في بناء النظام النفسي الداخلي (المزاج) لأي سبب ما"^(٢).

وقد استدلل النقاد الحديثون على ضرورة ارتباط المكان بأي عمل أدبي، فهذا نحن نرى باشلار قد دعا إلى نفي "الأصالة عن العمل الأدبي إن لم يرتبط بالمكان، فالعمل الأدبي حين يفتقد إلى المكانية فهو يفتقد خصوصيته وبالتالي أصالته....."^(٣). وبعد،،،،

فإنّ ما سأقدمه لاحقاً يمثل رؤية لظاهرة المدينة، في الشعر الشامي في القرنين السادس والسابع الهجريين، إذ تعمّقت جذور المدينة في وجدان الشاعر وارتبط بها، وأصبح يجمعها علاقات وصلات حميمة، فتارة يدفعه الحنين إليها وراثتها، وتارة أخرى نراه قد ذمها وهجاها ونفر منها لأسباب خافية في ذات

(١) حسين، محمد محمد، الهجاء والهجاؤون في صدر الإسلام، ط٢، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٩م، ص ٤٠.

(٢) مغيض، جماليات المكان في شعر عرار، ص ١٩٧.

(٣) باشلار، جاستون، جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، دار الجاحظ للنشر، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٠، ص ٩.

الشاعر، وتارة ثالثة نراه يرسم لنا لوحة جميلة للمدينة بريشته الخاصة فيضفي عليها ألوانا بديعة، وفي كل الأحوال عبر الشعر الشامي في معالجته لهذه الظاهرة عن الذوق الرفيع الذي واكب التطور الحضاري والفكري الذي وصلت إليه بلاد الشام.

١.١.١ مدح المدينة الإسلامية

يقصد بهذا النوع من أنماط الشعر، تركيز الشعراء على إبراز المدينة بجمالياتها الطبيعية وتفصيلها من حيث الوصف المتناسق، وما تشتمل عليه من جنان وبساتين وقصور وانهار وقرى وجبال وهواء عليل، ولم يغفلوا عن ذكر المعالم الحضارية والمعمارية كهندسة البناء ورسومها وزخارفها. ويضيف شفيق الرقب في معرض حديثه عن مدح المدن بقوله: "تمط فريد من المدح وربما كان صورة من صور الحديث عن فضائل البلدان التي كثر التأليف فيها في عصر الحروب الصليبية، لذا فقد عني الذين اهتموا بالتأليف في الفضائل بإيراد الأشعار التي قيلت في المدينة التي يتحدثون عنها...."^(١).

والأشعار التي قيلت في مدح المدن كثيرة، ولكنها لم تتميز بالاستقلالية عن العناصر البنائية للقصيدة، فإطلالة المدينة في القصيدة العربية القديمة، كانت تتسم بظلال خافته باهته تأتي عرضاً أثناء المدح أو وصف الناقة، ولعل ذلك يعود إلى طبيعة الحياة البدوية التي لا تركز إلى الاستقرار. ومن هنا كان الشاعر منهمكاً في وصف الطبيعة ومشاهدها ذات المساس المباشر بحياته ومستقبله، فوصف الليل والبرق والمطر والأطلال والناقة والممدوح والصحراء، وحينما نستعرض دواوين الشعراء من العصر الجاهلي إلى العصر الأموي، فإننا لا نجد قصيدة متكاملة في رصد صورة المدينة ووصف معماريتها وأبعادها الحضارية، بل نجد مقتطفات هنا وهناك وشذرات متناثرة في ثنايا القصيدة لا تشكل صورة معمقة عن رؤية الشاعر وموقفه للأبعاد الحضارية، فالشاعر ظل أسيراً للبدأة ومواكبة أثارها، فكان وصفه تمثيلاً لهذه البيئة وتعبيراً عن صدق انتمائه لها، أما في العصر العباسي فقد تشكلت

(١) الرقب، الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري، ص ٢٨٨.

صورة المدينة على أنها ظاهرة حضارية، يرصدون جماليات المكان لينطق عن التطور الحضاري الذي شهده العصر، وهذا التطور الحضاري الذي ميز العصر العباسي كان له الأثر الكبير في صقل الذوق العام وتهذيبه، فانعكس ذلك على ذوق الشعراء فأبعدهم عن الصحراء وبدأوتها وجعلهم ملتصقين بالحياة الحضارية الجديدة المستقرة في المدن والقصور^(١).

أما في القرنين السادس والسابع الهجريين، فقد كثر الحديث عن المدينة بقصائد شعرية متكاملة البناء، ويعود ذلك إلى حنين الشعراء الشاميين إلى المدينة فتشوقوا إلى جنانها وبساتينها ونباتاتها وأزهارها وأجوائها الطبيعية، فرسموها بأبهى الصور الجميلة، كما لم يغفلوا عن تصوير العمارة العربية الإسلامية، " فلا بد من المكانية في العمارة، فالإنسان كان وما زال في حاجة مستمرة للسكنى في مواجهة الكون، وللتعامل مع الجمال الذي يثير في النفس عاطفة الحب، وكل ما هو رقيق وناغم وواضح اللون وساطع البريق.... وأنه كان في الوقت نفسه في حاجة إلى ما يعرف بالجليل الذي يتميز بالفخامة والسمو... والتماسك أمامه بحيث يثير في النفس عاطفة الإعجاب.... كما أنه لابد من الشعر للإحساس بالزمن، ولمواجهة النثرية والفوضى والدخول في عالم روحي موقع، مع ملاحظة أن هذا الجانب من الشعر كان مستنداً أساساً على العمارة..."^(٢).

وإذا كانت الطبيعة عموماً والمدينة على وجه الخصوص قد تميزت بمناظرها الخلابة الجميلة وفنها المعماري، فأنها شكلت ميداناً فسيحاً للشعراء ينهلون من ينابيعها ويتجولون بين أحضانها، فكانت بحق مصدر إلهامهم، فرسموا لوحات شعرية نابضة بالحياة ومتدفقة بالحياة، ليتحول الشاعر إلى عاشق لجماليات المدينة منصهراً في محاسنها ومفاتها، ومن هؤلاء الشعراء: ابن منير الطرابلسي (٥٤٨هـ)،

(١) البكور، حسن فالح حسين، المدينة في الشعر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة اليرموك، الأردن، ١٩٩٩، ص ١٥.

(٢) بدوي، عبده، التقاء العمارة الإسلامية بالشعر مع تطبيقات على الشعر الحديث، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٧، ص ٤٥.

ابن الدهان الموصلي (٥٨١هـ)، فتيان الشاغوري (٦١٥هـ)، وابن عقيل الزرعي (٦٢٢هـ) وابن عنين (٦٣٠هـ).

وقد توقف الشعراء الشاميون طويلاً عند المناظر الطبيعية، كالرياض والبساتين والبرك والربيع، وتغنوا بجمال أزهارها وثمارها، حتى غدا إنتاجهم الشعري مرآة تعكس ما تتميز به المدينة من جماليات الطبيعة، تتآلف معاً لتشكل باقة من الزهر تعبر عن رهافة حس الشاعر وذوقه الرفيع، وهذا ما نراه عند عرقله الكلبى^(١) إذ أعرب عن افتتانه بمدينة دمشق وابتهاجه بجمالها لاسيما في فصل الربيع^(٢):

هذا هو الزمنُ البديعُ المونقُ	والعيشةُ الرغدُ التي هي تُعشقُ
فعلامَ تصحو والحمامُ كأنها	سَكَرى تُغني تارةً وتصفقُ
وتلوم في حبِّ الديار جهالةً	هيها ت يسلوها فؤادُ شيقُ
الشام شامةٌ وجنة الدنيا كما	إنسانُ مقتلها الغضيفةُ جلقُ
من أسها لك جنة لا تنقضي	ومن الشقيق جهنمٌ لا تحرقُ
سيما وقد رقمَ الربيعُ ربوعها	وشياً، به حدقُ البرايا تحديقُ
في نيربٍ ^(٣) ضحكت ثغورُ أقاحه	لما بكاه العارضُ المتألقُ

يرسم الشاعر صورة جميلة لمدينة دمشق "فالشعر فن اكتشاف الجانب الجمالي والوجداني من الحياة"^(١) فهذه المدينة جنة تنتشر فيها الأزهار والورود

(١) هو أبو الندى حسان بن نمير بن عجل الكلبى، شاعر مستطرف الهجاء، ولد سنة ٤٨٦ هجري - ٥٦٧ هجري، شاعر من الندماء كان من سكان دمشق واتصل بالسلطان صلاح الدين الأيوبي فمدحه وناداه ووعدده السلطان إن يعطيه ألف دينار إذا استولى على الديار المصرية، فلما احتلها أعطاه ألفين فمات فجأة قبل أن ينتفع بفجاة الغنى، انظر: الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، ج ١، ص ١٧٨.

(٢) الكلبى، العرقله، ديوانه، تحقيق: أحمد الجندي، دمشق، ١٩٧٠م، ص ٦٨، انظر: الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، ج ١، ص ٢١٧.

(٣) نيرب: قرية مشهورة بدمشق على نصف فرسخ في وسط البساتين. انظر: الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، ج ١، ص ١٩٨.

والرياض التي تفوح منها الروائح الزكية، فإذا كانت دمشق تشكل مكاناً جمالياً، فإن الإنسان يحس بأن العيش فيها رغد، فصورة الربيع هنا تكتسب قيمةً ومعاني جميلة، فهو عند الشاعر مصدراً من مصادر الأمن والاستقرار، ورغد العيش والجمال والحيوية والحركة والنشاط، حتى تبدو الشام في ناظري الشاعر شامة في وجنة الدنيا، بل تغدو هذه الديار جنة يعيش الشاعر في نعيمها، ويمتّع ناظريه بمواطن الجمال فيها.

ونراه في قصيدة أخرى يتغنى بجماليات مدينة دمشق ويحن إليها^(٢):

دمشقُ حُبِّيَّتٍ مِنْ حَيٍّ وَمِنْ نَادٍ وَحَبِّذَا حَبَّذَا وَادِيكَ مِنْ وَادٍ
ليس الندامي ندامي حين تنزله يعلمهم شادين كأساً على شادٍ

يا غادياً رائحاً عرج على بردى وخلصني من حديث الراح الغادي

تستحوذ مدينة دمشق على اهتمام العرقلة، فهو يتشوق إلى واديهما، وقد فاق هذا الوادي في نظر الشاعر الأودية الأخرى، فلا يملك إلا أن يحييها ويفضّل معالمها على غيرها، ويدعو الآخرين إلى أن يعرجوا عليها، فهي دارٌ يجد فيها الإنسان الطمأنينة والسكينة.

وقد اقترن هذا الشعر الذي تغنى فيه الشعراء بجمال البيئة الدمشقية، بالحنين إليها لا سيما لدى الشعراء الذين رحلوا عنها اختياراً أو اضطراراً، ومن هؤلاء الشعراء ابن عنين^(٣) إذ قال قصيدة يحن فيها إلى دمشق، ويتشوق إليها كالعاشق

(١) عبد الصبور، صلاح، قراءة جديدة لشعرنا القديم، دار اقرأ، بيروت، ١٩٨٢م، ص ١٣.

(٢) الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، ج ١، ص ١٩٨.

(٣) أبو المحاسن شرف الدين محمد بن نصر الأنصاري الدمشقي، ولد سنة ٥٤٩هـ — ٦٣٠هـ، نشأ بدمشق تتلمذ على يد أبو التثاء الشيرزي وأبو القاسم ابن عساكر، ابتدأ الشعر سنة ٥٦٥ وكان عمره ١٦عام، تميز شعراء الشام في عصره بقيام شعره على النظرة الهجائية ويلقب بشاعر الهجاء والسخرية، فلم يسلم سلطان أو وزير أو حاكم من لسانه، ربما يعود هذا إحساسه بالنقص لنشأته في أسرة ضئيلة لم تربه على فعل الخير، انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٦، ص ١٠٣.

المفتون وهو في اليمن ويحيي الملك العزيز سيف الإسلام^(١) طغتكين بن أيوب صاحب اليمن سنة سبع وثمانين وخمسمائة فيقول^(٢):

حنينٌ إلى الأوطان ليس يزولُ وقلبٌ عن الأشواق ليس يحولُ
أبيتُ وأسرابُ النجوم كأنها قُقولٌ تهادى إثرهنَّ قُقولُ
دمشقُ، فبي شوقٌ إليها مبرحُ وإنْ لجَّ واشٍ أو ألحَّ عذولُ
ديارٌ بها الحصباءُ درٌّ وتربُّها عبيرٌ وأنفاسُ الشمالِ شمولُ
تسلسلُ فيها ماؤها وهو مطلقُ وصحَّ نسيمُ الروضِ وهو عليلُ
فيا حبذا الروضُ الذي دونَ عزَّتَا^(٣) سحيراً إذا هبتْ عليه قبُولُ

يستهل ابن عين قصيدته المكونة من أربعة وثلاثين بيتاً وموضوعها الحنين إلى مدينة دمشق، باسم يدل على الأسى المقيم، والنوى الممض، والوفاء المفقود من قبل بني وطنه، فيتمنى أن يلثم تراب دمشق الحبيبة بعدما اضطر إلى تركها أكثر من عشرين عاماً، عاش فيها حالات التشوق والتذكر والحنين، ويؤكد ذلك استهلاله القصيدة بلفظ (الحنين إلى الأوطان) لينتقل من خلالها إلى حديث الأمل والرجاء الذي تفجّره في نفسه مغاني دمشق الجميلة، مقارناً بينها وبين ما هو جميل وساحر من مظاهر الطبيعة، فغدا الشاعر كالعاشق الذي يحن إلى أيامه فيها، وغدت دمشق الوطن الحبيب والأمل المنشود فيخاطبها ويناجيها ويبثها أشواقه العارمة التي استولت على كيانه على الرغم من فعل الوشاة وكيد العذال. ثم يتابع رسم لوحته

(١) الملك العزيز طغتكين، أخو السلطان صلاح الدين، بعثه أخوه إلى اليمن سنة ٥٧٩هـ فملكها وتوفي فيها سنة ٥٩٣هـ وله ترجمة في: ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، ج ١، ص ٢٩٧.

(٢) ابن عنين، ديوانه، تحقيق: خليل مردم بك، دار صادر، بيروت، ط ٢، ١٩٥٩م، ص ٦٩.

(٣) ورد اسم عزّتَا في بعض كتب البلدان والتاريخ عرضاً دون تعيين لمكانها والذي عين مكانها العمري. انظر: العمري، شهاب ابن فضل الله، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية القاهرة، ١٩٢٤، ج ١، ص ٨١. فقد ورد فيه "إن نهر الفيحة يخرج من جبل تحت حصن عزتا فهي على ذلك قرب قرية الفيحة.

الجميلة عندما وصف مفاتنتها، فيرى أن رمادها درّ، وترابها مسك، ورياح الشمال الباردة فيها خمرٌ تسكر، وتتشرب طيبها في كل مكان.

ويا حبذا الوادي إذا ما تدفّقتْ جداولُ باناسٍ^(١) إليه تسيلُ
وفي كبدي من قاسيون^(٢) حزارةٌ تزولُ رواسيه وليس تزولُ
إذا لاحَ برقٌ من سنير^(٣) تدافقتْ لسحب جفوني في الخدود سيولُ

ثم يتابع الحديث عن رحلة الجمال والشوق التي يرسم خطوطها الجميلة وألوانها الفاتنة بردى وواديه، حيث تتدفق الجداول، لتتجمع مشكلة (نهر بانياس) أحد روافد بردى، ويعلق أحمد علي دهمان "أن الأرض الخضراء، المياه العذبة الباردة، النسيم العليل، ترسم حركة الطبيعة التي تزرع الحياة، والطيور الجذلى، التي تحوم فوق الماء، وقد أوقد سعير الحر أكبادها، فتلقي بنفسها على الماء، لعلها تستحم، وتتجو من العطش القاتل، فتفعل ما فعله ابن الأشعث الذي رفض مذلة الأسر على أيدي جنود الحجاج فألقى بنفسه من مكان عال.... وفي ذلك استغلال ذكي وظريف لمجريات التاريخ، ترسمها ريشة فنان عبقرى...."^(٤).

وكم قائلٍ في الأرض للحرّ مذهبٌ إذا جارَ دهرٌ واستحالَ مَلْـوْلُ
وما نافعي أنّ المياهَ سوائِحُ عذابٌ ولم يُنْقَعْ بهنّ غَـيْلُ
فإنّ الفتى يلقي المنايا مكرّماً ويكرهُ طولَ العمرِ وهو ذليْلُ
تُعافُ الورودُ الحائِـماتُ مع القذى وللقِـظِ في أكبادهن صايِلُ

(١) باناس: من أنهار دمشق يفترق من نهر بردى في قرية دمر ويلفظه الدماشقية اليوم بانياس، ابن عنين، ديوانه، الحاشية رقم ٨، ص ٤٢.

(٢) قاسيون: جبل دمشق المشرف عليها من شماليها، ابن عنين، ديوانه، الحاشية رقم ٣، ص ٤٢.

(٣) وسنير: جبال دمشق المقابلة للبنان منها جبل الثلج حرمون وجبل القلمون، ابن عنين، ديوانه، الحاشية رقم ٨، ص ٣٢.

(٤) دهمان، أحمد علي، ابن عنين الأنصاري وشعر الحنين والتشوق إلى دمشق الفيحاء، دراسة تحليلية، دار البعث، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ص ٣٧.

كذلك ألقى ابنُ الأشج^(١) بنفسه ولم يرض عمراً في الإسار يطولُ
ويختتم القصيدة من خلال الربط بين المقدمة الطويلة التي أفردتها للحديث عن
الحنين والتشوق إلى دمشق، والمدح الوجيز للملك العزيز، الذي يحميه من حوادث
الدهر ونائبات الأيام، ويبدد بعض غربته، لذلك برهنت هذه القصيدة -كغيرها من شعر
الحنين- على أن ابن عنين أكثر الشعراء والأدباء حنيناً لدمشق، وبراً بها فهو "إذا ما
طوّحت به النوى إلى بلاد اليمن والهند وأقاصي الشرق، اشتد حنينه إلى وطنه،
ومسقط رأسه ومرابع أنسه، وردد أسم مغانيه في قصيده وشعره..."^(٢).

أَيْعَثْرُ بي دهري على ما يسوءني ولي في ذرا الملك العزيز مقيلاً
وكيف أخافُ الفقر أو أحرُمُ الغنى ورأيُ ظهير الدين فيّ جميلاً
من القوم أمّا أحنفُ فمسّفةٌ لديهم وأمّا حاتمٌ فبخيلاً
فتى المجد أمّا جاره فممنّعٌ عزيزٌ، وأمّا ضدهُ فذليلاً
وأمّا عطايًا كفه فسوابغٌ عذابٌ، وأمّا ظلّه فظليلاً

أن الشاعر ابن عنين يمتلك حساً شعرياً مرهفاً، وذلك من خلال البوح المتناغم
الجميل الذي نراه في القصيدة، إذ استغل شاعرنا مفاتن دمشق ومناورات ذكرياته
فيها، ليفجر معاني التشوق ومشاعر الحنين، فيصف أحاسيسه تجاه قاسيون وجبال
الزبداني وحرمون، فهي التي تثير الذكريات لأنها القصد والسبيل والهدف، وإن
كانت الغربة قد حرمته من نعمة الإقامة بين الأهل والأحبة، لكن حبه شديد، وصبره
جميل، وعزاه كبير، وهو الذي لم يفارق دمشق عن قِليّ أو ملال، ولكنّه الدهر

(١) ابن الأشج: هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث خرج على الحجاج وحاربه طويلاً فلما
هزم وأسلم إلى رسل الحجاج ألقى بنفسه من سطح حصن مرتفع، ابن عنين، ديوانه،
الحاشية، رقم ٤، ص ٧١.

(٢) الحموي، محمد ياسين، دمشق في العصر الأيوبي، مكتب النشر العربي، دمشق، ١٩٤٦م،
ص ٧٥.

والحرص على الكرامة.... وربما كانت هذه القصيدة من أحسن قصائده، فهي شبيهة بروميات أبي فراس الحمداني، كما يرى المرحوم أحمد الجندي^(١).

وله قصيدة أخرى كتبها إلى المعتمد مبارز الدين^(٢) إبراهيم ابن موسى والي دمشق، وسيرها إليه من نيسابور سنة ٦٠١ فيقول^(٣):

كم أُوَّاري عن لوعتي وأواري	ما أجنّت أضالعي من أُواري ^(٤)
وأري صاحبي سلواً وفي القلب	ب زناداً من قاذح الشوق واري ^(٥)
جلداً أظهر السرور وإن أض	مرت حزناً بين الحشا متواري
فسقى الله بين آبل ^(٦) والمر	ج ثقلاً من الغوادي السواري
كل وطفاء تحسب الرعد فيها	بعد وهن تجاوب الأطيـار
ورباً عزتاً قد جادها النـ	ج ولاحت من سائر الأقطار
كعروس من آل ساسان تجلى	في ديبقي خلّة وإزار ^(٧)
وزماناً مضى على آبل السو	ق وليل الشباب وحف خـداري
ومسراتنا طوال عراض	والليالي قصيرة الأعمـار

(١) الجندي، أحمد، شعراء من بلاد الشام، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٤م، ص ٣١٨.

(٢) كان من خيار الولاة، استقر شحنة بدمشق أربعين سنة فحمدت سيرته، توفي بدمشق سنة ٦٢٣ هجري وله ترجمة في: الدمشقي، أبو الفداء الحافظ بن كثير، البداية والنهاية، تحقيق: أحمد أبو ملح، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٣، ١٩٨٧، ج ١٣، ص ١١٥. ابن عنين، ديوانه، الحاشية رقم ٦، ص ٧٤.

(٣) ابن عنين، ديوانه، ص ٧٥.

(٤) أُواري: أعلن عن الشيء وظهر غيره، أُواري: أوقد، أجنّت: أخفت، أُواري: من حرارة الشوق واتقاد النار في القلب.

(٥) السلو: رخاء العيش والرغد، واري: أي خرجت ناره.

(٦) آبل: هي آبل السوق وهي قرية تسمى اليوم سوق وادي بردى بين الزبداني ودمشق. واسمها القديم اببلا كما في قاموس الكتاب المقدس، ابن عنين، ديوانه، الحاشية رقم ٧، ص ٤١.

(٧) ديبقي: ثياب تنسب إلى دبيق وهي قرية بمصر، الإزار: ثوب يحيط بالنص الأسفل من البدن.

ففي هذه القصيدة أوقدت نار الغربة في نيسابور مشاعر الحنين لدى الشاعر، بادئاً بمطلع تكرر فيه حرف الراء، وكأنه يكرر صدى الشوق واضطراب المشاعر بصنعة شعرية لطيفة، تتقاذفه السعادة والأحزان لتستقر فيما بعد في موافد أشواقه، وبعد البوح بجماعية الفرح والحزن والصبر يجد السلوى في التغني بمرباع دمشق ومنتزهاتها، فيدعو لنبع الخير (وادي بردى) بالسقيا والغيث ليسقى مرباع ديار الحبيبة وعندها يعمّ الخير وتهدأ لوعة النفوس بعد اليأس والقنوط وتزغرد الطبيعة بوساطة أطيافها التي تزرع المكان جمالاً ولعل هذا الدعاء له جذوره الممتدة إلى الماضي فتاريخ السقيا قديم يعود إلى ارتباطها بالاعتقاد الديني، ولم تقتصر على العهد الجاهلي وإنما امتدت إلى عاد وثمود^(١).

وللسقيا دلالتها وأبعادها من حيث بعث الحياة والراحة، فإذا كان الشاعر مغترباً عن مدينته فإن الهموم والمعاناة تسيطر عليه، فيأخذ بالتوجه إلى الله مستمداً منه العون بالدعاء لمدينته بالخير لأنها المكان الذي أحبه وقد يحمل تضرع الشاعر للمكان بالسقيا بعداً جمالياً " فالمائية التي يستسقى بها من الصفاء والطهارة بحيث تبعث جواً يشيع النضارة من خلال التحول الذي كان بالانقطاع والابتعاد والافتراق وإلى الاستمرارية المجسدة لحسّ تحولي في الطبيعة نفسها نحو الخصب والخير وذلك من خصائص الجوهرية للاستسقاء المكاني سواء أكان وطناً لأهل أم وطناً لحبيب، فالسقيا تدعو إلى حالة توازن^(٢).

إن الشاعر يرى لحظات السعادة والنشوة قصيرة سريعة الزوال، ففي هذه المرباع عاش أعراس الفرح واللذة والاستمتاع بنشوة الخمر المنسوبة إلى (صيدنايا) البلدة الجميلة الساحرة التي تتربع على طبيعة خلّابة.

أجتلي بنت كرمه خزننها ——— روم دهرأ ما بين طين وقار

(١) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م، ج ١، ص ١٣٤-١٣٧.

(٢) خربوش، حسين، ظاهرة السقيا وإبعادها الدلالية في القصيدة العربية، مجلة جامعة البعث، العدد ١١، أيلول، ١٩٩٢م، ص ٢٦.

صَيْدِنَائِيَّةُ^(١) المناسب لكنَّ أباهَا إِذَا اعتَزَى كَانَ قَارِي
من يدي كُلُّ مُتَرْفٍ سَاحِرِ الطَّرِّ فِ جَمِيلِ الْأَوْصَافِ كَالِدِينَارِ
بَجْبِينِ مِثْلِ الصَّبَاحِ مَنِيرِ تَحْتَ لَيْلٍ تَضِلُّ فِيهِ الْمَدَارِي
مَا رَأَى النَّاسُ قَبْلَهُ بِدَرِّ لَيْلٍ طَافَ فِي مَجْلَسٍ بِشَمْسِ نَهَارِ
ويسترسل ابن عنين في وصف الخمائل الندية، وقد فاح عطرها في الربيع،
فيتذكر الرياض الخضراء التي بدت سوداء اللون، لشدة خضرتها، وقد زينتها زهوراً
خضراء تتلألأ كالنجوم، وكأن شعر أبي تمام في وصف الطبيعة كان هاجساً
حاضراً في ذهن الشاعر، ومما قاله أبي تمام^(٢):

يَا صَاحِبِي تَقْصِيًّا نَظْرِيكَمَا تَرِيَا وَجُوهَ الْأَرْضِ كَيْفَ تَصُورُ
تَرِيَا نَهَاراً مَشْمِساً قَدْ شَابَهُ زَهْرُ الرَّبَا فَكَأَنَّمَا هُوَ مَقْمَرُ
ولقد ذكر الرياض والبساتين التي زينت بجمالها أحياء دمشق ونواحيها، لكن
الدهر له بالمرصاد، فقد بدد الألفة وفرَّق الشمل، في حين أن الشاعر دائم الحركة
والتحول في الأرض يسعى إلى طلب الرزق، وكأنه مكلف بمسح الأرض التي يسير
عليها لكثرة أسفاره ومنغصات غربته، لكنه عاد ليعلن صموده في وجه النوى
والأسى، فهو لا يريد الإقامة لأنه يتعزى بحركة الأقمار التي لا تستقر في مكانها،
فلو أتيح لطائر القطا أن يستريح لنام، ولو خير الشاعر لاختار الأهل والوطن اللذين
لا بديل لهما:

فِي رِيَاضٍ مِثْلِ السَّمَاءِ اخْضَرَاراً زَيْنَتَهَا أَزَاهِرٌ كَالدَّرَارِي
أَحْكَمُ الصَّنْعِ شَهْرٌ كَانُونَ فِيهَا فَشَاذَاهَا يُثْنِي عَلَى آذَارِ

(١) صيدنائية: نسبة إلى صيدنايا وهي كما في معجم البلدان: " بلد من اعمال دمشق مشهور
بكثرة الكروم والخمر الفائق ". وقاري: نسبة إلى قارة وهي قرية كبيرة في جبل القلمون
على طريق حمص، ابن عنين، ديوانه، الحاشية رقم ٥، ص ٧٥.

(٢) أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي، ديوانه، شرح الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد عبده، دار
المعارف، مصر، ط ٣، ١٩٧٦، ج ٢، ص ١٩١.

مثلُ رزقي يَدْرُ لي بخراسا ن ومدحي في أهل جيرون جاري
أَتمناهُمُ وهيهاتَ أَقصى الـ دهرُ عنهم داري وشطُّ مزارِي
غَيرَ أَنِي أَطوفُ في طلبِ الرز ق كأني كُلفتُ مَسَحَ البراري
ومحالٌ قولي لِنفسي عزاءُ سـرعةُ السيرِ عادةُ الأَقمارِ
لو يُخلَى القَطَا لنامَ ولو خُلِّـ يـتُ لم أرمَ عن وجاري وجاري
ولو أَنِي خُيرتُ في هذه الدنـ يا لما اخترتُ غيرَ قومي وداري

ويختتم الشاعر قصيدته كسابقتها بالدعوة للممدوح وشكره الذي يراه موضع
الأمل والرجاء في التخلص من تباريح الشوق والغربة، مستظلاً بحمايته وعطفه من
ضروب الدهر، داعياً للأمير بالسقيا والنجاة من كل مكروه أو مصيبة :

فأيادي مبارز الدين أدنى لثرائي وعزمُ لَأَنصاري
أدركتني نَعْماء في آخر الهنـ د فما ظَنُّكم به وهو جاري
أمنتني يمناه من جورِ أيا مي وجادت يساره ببسـاري
مَهْدَ الشامَ عدله فالطلا الأـ رـقُ يرعى مع الذئاب الضواري
دامَ تُخطيه حادثاتُ المنـايا نافذاً حكمه على الأَقدارِ

وتتفاعل في نفس الشاعر مجموعة من المشاعر والعواطف والأحاسيس المتولدة
عبر مسيرة التعايش مع الممدوح، وبدأت التفاعلات تولد هذه التجربة الإبداعية التي
تجسدت عبر مجموعة من المحاور، والتي من أهمها الدعوة لمدينة دمشق بالسقيا
كما ذكرنا آنفاً، وذكره لبعض الأماكن والمدن الشامية في معرض حديثه عن الحنين
إلى دمشق ففي هذه القصيدة -التي بلغت خمسة وخمسين بيتاً- عندما كتبها في مدح

الملك العادل^(١) أبي بكر سيف الدين بن أيوب أخي صلاح الدين (٥٤٠ - ٦١٥هـ) ويستأذنه في العودة إلى دمشق فيقول^(٢):

وماذا على طيف الأحبة لو سرى	وعليهم لو سامحوني بالكرى
جنحوا إلى قول الوُشاة فأعرضوا	والله يعلم أن ذلك مُفتـرى
يا مُعرضاً عني بغير جناية	إلا لما رِقشَ الحسودُ وزورا
هبني أسأتُ كما تقولَ وافترى	وأُتيتُ في حُبِّك أمراً مُنكرا
ما بعد بُعدك والصدود عقوبة	يا هاجري قد آن لي أن تغفرا
لا تجمعنَّ عليَّ عتبك والنوى	حسبُ المحب عقوبة أن يُهجرا
عبء الصدود أخفُّ من عبء النوى	لو كان لي في الحب أن أختيـرا
فسقى دمشق وواديها ^(٣) والحمى	متواصلُ الإرعاد منفصمُ العُرى
حتى ترى وجهَ الرياضِ بعارضٍ	أحوى وفودَ الدوح أزهر نيـرا
وأعاد أياماً مضين حميدة	ما بين حرّة عالقين وعشتـرا ^(٤)
تلك المنازلُ لا أعقه عالـج	ورمالُ كاظمةٍ ولا وادي القُرى ^(١)

(١) أبو بكر محمد بن أيوب بن شادي الملقب بالملك العادل، أخو السلطان صلاح الدين، ولد بدمشق سنة ٥٤٠هـ وتوفي سنة ٦١٥هـ ودفن في مدرسته العادلية، له ترجمة في: ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، ج ٢، ص ٦٢، ابن عنين، ديوانه، الحاشية، ص ٣.

(٢) ابن عنين، ديوانه، ص ٤.

(٣) وادي دمشق: هو وادي بردى حيث يجري نهر بردى من منبعه قرب الزبداني إلى دمشق والثاني الأرض المنخفضة من الغوطة المعروفة بين أهل الغوطة بأرض الوادي وأوله عند مقسم الأحد عشرية وآخره في جسر الغيضة قرب قرية المنيحة، ويجري فيه نهران منشعبان من بردى اسم الأول الداعيانى أو قناة الو تارة ومقسمه في الصفوانية واسم الثاني المنيجي ومقسمه في الأحد عشرية، انظر: ابن عنين، حاشية ديوانه، الحاشية رقم ٤، ص ٤.

(٤) الحرّة: أرض ذات حجارة نخرة سود، عالقين: قرية بظاهر دمشق في الجنوب وبها توفي الملك العادل ولا تزال معروفة بهذا الاسم إلى الآن، وعشترا: موضع بحوران من أعمال دمشق، كما في معجم البلدان، وقد ورد ذكرها في أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين: النورية والصلاحية، ج ١، ص ١٨٦ و ٢٠٧. انظر: ابن عنين، ديوانه، ص ٤.

تأتي هذه اللوحة لتعبر عن جماليات المكان، ورغبة الشاعر الجامعة في زيارة طيف الأحبة الذي يتمنى لقاءهم، والرغبة في عفوهم، ويطلب من الممدوح ألا تزيد قسوته عليه، فتزداد تباريح النوى والآم الصدود والاعتراب، لأنه مؤمن أن عقوبة المحب أن يهجر، ولو عاقبوه في الحب بغير الجفاء لرجاهم وطمع في أن يتصبر... ثم يلتفت إلى مدينة دمشق، فيدعو لها بالسقيا والخصب، ويتغنى بذكر بردى ونبعه بالقرب من الزبداني، متمنياً أن تعم الخضرة وجه الأرض والمنازل الأثيرة.

أرضٌ إذا مرَّتْ بها ريحُ الصَّبَا	حملتْ على الأغصان مسكاً أذفرا
فارقتُها لا عن رضىٍ وهجرتُها	لا عن قلىٍ ورحلتُ لا متخيِّرا
أسعى لرزقٍ في البلاد مفرِّق	ومن البليَّة أن يكون مقترا
ولقد قطعتُ الأرض طورا سالكا	نجداً وآونةً أجْدُ مغوراً
وأصونُ وجهَ مدائحي متقنَّعاً	وأكفُ ذيلَ مطامعي متستراً
كم ليلةٍ كالبحر جبتُ ظلامها	عن واضح الصبح المنير فأسفرا
في فتيةٍ مثل النجوم تسنموا	في البید أمثالَ الأهلة ضُمرا
باتوا على شُعب الرحال جوانحاً	والنومُ يفتل في الغوارب والذُراى
مترنِّحين من النُّعاس كأنهم	شربوا بكاسات الوجيف المسكرا

وكانَّ الشاعر يريد أن يشعرنا بالغربة التي عاناها، فهو يقطع الآفاق بأغوارها وأنجادها من دون أن يفرط بكرامته ورباطة جأشه، فقد عانى ظلمة الليل وهموم الصباح بفتية كمصابيح الدجى، لعلهم يقتلون الزمن ويبددون غربتهم، فالشاعر شديد

(١) الأعقة: جمع عقيق والعقيق الوادي، عالج: رمال بين فيد والقريات وهي متصلة بالثعلبية على طريق مكة لا ماء بها، وكاظمة: على سيف البحر في طريق البحرين إلى البصرة، ووادي القرى: واد بين المدينة والشام كثير القرى من أعمال المدينة وقد أكثر الشعراء من ذكر هذه الأماكن والتغني بها، انظر: ابن عنين، ديوانه، الحاشية رقم ٧، ص ٤.

الحنين إلى وطنه الذي كَلَمَّا هَبَّت عليه الرياح، نشرت عبيرها في الأرجاء، ولقد أعجب ابن خلكان بهذه القصيدة، فقال: "ولقد أحسن فيها كل الإحسان واستعطفه أبلغ استعطاف"^(١)، ورأى المرحوم خليل مردم بك أنها: "من حرّ الشعر وقد تكون أحسن شعره"^(٢). هكذا استطاع ابن عنين بهذه اللوحة الفنية الجميلة أن يخلق مشاعر من الغربة والحنين إلى وطنه دمشق، إذ يتشوق إليها ويذكر مياهه ووديانه والرياض والمنازل والرياح ويتحسر على عهده بهذه المدينة وحينما يسأل عن السبب يرى مسؤولية القدر وأنه هجرها قسراً وليس اختياراً.

ويرتبط هذا الحنين إلى ديار الشام بالتلذذ بترداد أسماء المواقع الشامية في الشعر، وقد كثر على هذا على نحو واضح، وكأنّ الشعراء أرادوا أن يثبتوا كل موقع في ديارهم في الأشعار التي يقولونها. ومن ذلك قول ابن عقيل الزرعي^(٣) يتغنى بجمال دمشق وهو ناءٍ عنها، فيذكر معالمها، وزمانه الذي قضاه في علياء جيرون، كما يستعيد ذكرياته في ربوتها الفيحاء بين الجداول التي تجري مياهها بين البساتين^(٤):

ذكرت ما لست انسي من معاليها	عصراً مضى لي على علياء جيرون
لله ربوتها الفيحاء سارحةً	منها الجداولُ في تلك البساتين
فالنيربين فواديها فما جمعتُ	سطرى ومقرى إلى ماحولَ جسرَيْن

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، ج ٥، ص ١٦.

(٢) ابن عنين، ديوانه، المقدمة، ص ١٢.

(٣) أحمد بن عقيل بن نصر بن أبو العباس الزرعي العامري، وزرْعُ التي ينسب إليها، قرية على باب دمشق إشارت المصادر إلى اتصال ابن عقيل الملك الأيوبيّ المعظم عيسى وملازمته له، تنص المصادر على السنة التي ولد فيها ابن عقيل، غير أنه ذكر أنه توفي في رمضان سنة ٦٢٣هـ، وهذا يقود إلى القول أنه ربما ولد في الربع الآخر من القرن السادس الهجري، انظر: ابن الشعار، أبو البركات المبارك الموصلي، عقود الجمان من شعراء هذا الزمان، تاريخ معهد أحياء المخطوطات العربيّة، مصر، ج ١، ص ١٢٣.

(٤) الزرعي، أحمد بن عقيل بن نصير، المختار من ديوان ابن عقيل الزرعي، مخطوط رقم ٢٨١٦، طبقوسراي، تركيا، (د.ت)، ص ١٠٥.

وقد نظم عبد المنعم الجلياني قصيدة أسماها (القصيدة الشماء في نعت الغوطة الدّماء)، تغنّى فيها بجمال البيئة الدمشقية، واستعرض بعض مواقع النزهة التي يخرج الناس إليها، ومن ذلك يذكر يوماً قضاه في أحد البساتين^(١):

عهد ليلى وما ضمّت لياليها أهدت جديـد صبابتي تواليها
لا تقدحي في ضنى جسمي معاتبة فشغل اعضاء الأنفاس توريها
أيام جلق والأهواء مسعدة ونضرة العيش تنهيهـا مباديها
في الغوطة الغبطة المدود نعمتها ارواح جنة عدنٍ في نواحيها
جلّنا بأعطافها نرعى نواظرنا منادحاً يزغ الأوصاب زاهيها
حتى استقلّت بنا وخّادة رسم مضمرات غليظ قلب حاديها
يفرى المهامة مهما استصرخت فرق أجاب داعيها أوجاب داعيها
بطاويات الفلا ثقلاً حقائبها وراميات الدجى خفّاً هواديها
كان من بمطاها في ذرى قُـزح في كفه النسقُ الشاميّ يثنيها

يستهل الشاعر قصيدته بما هيّج شوقه وحنينه إلى عهود ليلى، ولعل هذه الصورة الجميلة تقدح في نفس الشاعر وهي صورة حية تنبض بالحياة، إذ يتشوق الشاعر إلى روعة مناظرها، وحسن منتزهاتها، ورغد عيشها، وجمال مرابعها، وهوائها العليل والنسيم، ومن هنا فقد وعى الشاعر خصوصية هذا المكان - مدينة دمشق - التي أحبّها بهذا العمل الأدبي الذي يعبر عن رؤية متميزة لعشق المكان.

لقد سعد الشاعر في مدينة دمشق وترك بصمات واضحة الأثر في ربوعها وديارها، فغدّت أيامه وكأنّها ضرب من الماضي السحيق الذي لم ولن ينساها، كما لن ينسى أيامه في جلق وهوائها ورغد عيشها، والغوطة التي غدت كجنة عدن، ومن هنا فارتباط الشاعر بالمدينة وحنينه إلى منازلها ينبثق من خلال هذه العلاقات

(١) الجلياني، عبد المنعم، منادح الممدوح وروضة المآثر والمفاخر في خصائص الملك الناصر، مخطوط رقم ٣٢٩٨ أدب، مكتبة الأسد الوطنية، دمشق، (د.ت)، ص ٤٢.

الإنسانية الوجدانية التي يرتبط فيها مع أحبابه، فالمكان بالنسبة للإنسان والشاعر على وجه الخصوص هو هذه العلاقة الروحية والوجدانية المتشكلة من خلال بناء العلاقة مع طرف آخر جرت أحداثه وتفاعلاته في هذا المكان مما يكسبه هذه الخصوصية.

ويومنا والمنى تعطي أعنتها	طَوَّعَ القياد وتجنّى حَسَبَ جانيها
والمرج كالعين والأنهار أدمعها	وظلّ شجرائها جفنٌ يغشيها
كأنه سَبَحٌ يحوي زُمُـرْدَةً	أو طرفُ زرقاء مكحول مآقيها
للطرف والطرف في ميدانه نُزّة	تأتي النفوسُ به مرضى فيشفيها
ترخي الضحى والعشايا وسطه عذبا	تعلو الطهيرة فوضاها فتزويها
ونحن نرفل في ثني ملاءته	مقلّصاً ذيلها طورا ومضفيها
انيسنا ذات خلخال تجول به	ولا يجـول ويجلوه تثنيها
شيق الحياة مزاج الروح جائلة	في روعة فمعانيه معانيها
لو لم يشقّ حسنها شاقّت جبلتها	قبل التلاقي تلاق في مبانيها
تجر للدلّ ذيلاً في تراقبها	وتشعر الشمس ليلاً في تراقبها

هنا يصور الشاعر رحلات التنزه التي كان يقوم بها عامة الناس في سياق مدحهم للمدن الشامية، حيث يخرجون إلى الطبيعة ويقضون فيها بعض أوقاتهم، وقد كثر الشعر الذي يمثل ذلك، حتى ليخيل إلى القارئ أن بساتين دمشق، كانت متنزهات واسعة يفيء إليه الناس للتمتع بجمالها الخلّاب ومحاسن طبيعتها وكأنهم فتتوا بها فتونا، حيث كانوا يرون في أجوائها ما يطيب اللقاء، فتنمتع النفس بالمناظر الطبيعية الخلّابة التي تأسر النفوس وتسلب العقول، وكأنّ الشعراء يحسّون راحة غامرة وهم يصورون مدنهم ومنتزهاتها التي تتوافر فيها أسباب الرفاهية وأسباب العيش الرغد وخاصة إذا كان هوائها صافياً طيباً وإن كان أحد جوانبها محفوفاً بالرياض التي تنبعث من أرجائها أنسام معبقة بالعبير اللطيف ومحفوفة في الجانب الآخر ببحر يمدّها بنسيم رطب منعش.

وما نسيت فلا أنسى عيشتنا بالنيربين وقد برقت حواشيها

للبنوس على الغيطان راصعة
وساجع غرد في يانع خضر
وقفت بين سمّئين الكواكب من
من كلّ زاهرة غصراء باهرة
من الأصيل وعاجاً في روايبها
ترتجّ قضبانه أنى يغنيها
فوقي وتحتي نجوم لست أحصيها
تفرق الحُسن نهبا في نواحيها

ويصف شرف الدين راجح بن إسماعيل الحلبي^(١) مدينة دمشق^(٢):

فانهض إلى خلس اللّذات منتبهاً
فيها دمشقُ كما تختار سافرة
حيث التفت فجّبات مزخرفة
فما اجتليت خوداً من شقائقها
أيامها وتمتع من ليلاليها
تجلو عليك بديعاً من معانيها
بالحسن يقصر عنها وصف رائيها
إلا اجتتبت ثغوراً من أقاحيها
أرضٌ إذا باكرتها الغاديات فلا
راحت بسرحة نعمان وواديها

واقترح بعض الأكابر في الدولة النورية على العماد الأصفهاني أن يعمل قصيدة في دمشق، فأنشأ قصيدة مطلعها^(٣):

أهدى النسيم لنا ريا الرياحين أم طيب أخلاق جيراني بجيرون
والقصيدة استعراض لفضائل مدينة دمشق الاجتماعية ومحاسنها الطبيعية، ومظاهر الفتنة الجمالية فيها، فهو يفضلها على غيرها من البلدان لما تتمتاز به من رعاية للفقراء والمحتاجين وعناية بالمساكين والمنكسرين، وإقامة المنازل الخاصة لهم:

دمشق عندي لا تحصى فضائلها عداً وحصراً ويُحصى رمل يبزين

(١) راجح الحلبي، أخباره في: الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي بن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٩٣٠، ج ٥، ص ١٢٣.

(٢) ابن شداد، عزّ الدين أبي عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم، الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: سامي الدّهان، مجمع العلمي العربي، دمشق، ١٩٥٦، ج ٢، ص ٣٥٩.

(٣) الأصفهاني، العماد أبو عبد الله محمد بن حامد، ديوانه، جمع وتحقيق ناظم رشيد، الموصل، جامعة الموصل، ١٩٨٣، ص ٤٣٢.

وما أرى بلدةً أخرى تماثلها ————— في الحسنِ من مصر حتى منتهى الصينِ
في كل قطرٍ بها وكرٌ منكسرٌ ————— ومسكنٌ غيرٌ مملولٍ لمسكينِ
وان من باع كل العمر مقتنعاً ————— بساعةٍ في ذراها غير مغبونِ
يصيبك ميطورها^(١) طوراً ونيربها ————— طوراً وتوليك إحسانا بتحسينِ
تري جواسقها^(٢) في الجو شاهقةً ————— كأنهن قصور للسلطينِ

والقصيدة فيها كل العناصر التي تحدّث عنها الشعراء السابقون بصورة متفرقة، ففيها وصف لمظاهر العمران في دمشق، وتصوير أخذ للبيئة الطبيعية الجميلة بما فيها من مياه وبساتين وطيور حتى غدت المدينة لدى الشاعر دار النعيم، وهو معين متاح للناظرين جميعاً، قد فتحت أبوابه للأبرار وغير الأبرار، ولم يقف الشاعر عند حدود ذلك بل وصف مظاهر الجمال البشري فيها، لاسيما الفتيات الحسان اللواتي يخطفن القلوب بصورهن المستحسنة وأخلاقهن العذبة يقول:

إن القلوب وألحاظ الحسان بها ————— كالعصافير في أيدي الشواهيـن
من كل خاطفة للقلب مخطفةً ————— بالخصر تمطلني ديني وتلويني

ومن القصائد الطوال التي قيلت في مدح دمشق قصيدة قالها الأمير أبو الفضل إسماعيل بن أبي العساكر^(٣)، وقد جاء فيها كما قال ابن عساكر، بمحاسن دمشق مستقصاة مفصلة والقصيدة مطلعها^(١):

(١) الميطور: من قرى دمشق. الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٣١٩، قال عرقلة بن جابر بن نمير الدمشقي:

وكم ليلة بالماطرون قطعنها ————— ويوم إلى الميطور وهو مطير

(٢) الجواسق: القصر أو الحصن وهي قرية كبيرة من نواحي دجيل من أعمال بغداد بينهما عشرة فراسخ، انظر: الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٤١٦.

(٣) ذكره العماد في الخريدة في شعراء الأمراء بني منقذ الكنانيين من شيزر، وقال: كان شاباً فاضلاً وسكن بعد اخذ شيزر منهم بدمشق، توفي سنة إحدى وستين، انظر: الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، ورقة ١١٥ ب - ١١٦ آ ولم يذكر هذه القصيدة.

يا زائراً يزجي القرومَ البزلاً^(١) دَعَ قَصْدَ بَغْدَادٍ وَخَلَّ الْمَوْصِلَا
لَا تُزْجِهَا لِسَوَى دَمَشَقٍ فَأَنَّه سَيُطِيلُ حَزّاً مَنْ تَعَدَّى الْمِفْصِلَا
والقصيدة من حيثُ المضمون ذات قيمة كبيرة، فهي تعبرُ عن إعجاب الشاعر
بما شاهده في المدينة من مظاهر دينية وتعليمية متنوعة في المدارس والمساجد، كما
في قوله:

ذو ربوةٍ جاء القرآنُ بذكرها ومساجدٍ بركاتُها لن تُجْهَلَا
ومدارس لم تأتِها في مُشْكلٍ إِلَّا وَجَدْتَ فَتًى يَحُلُّ الْمُشْكَلا
ما أمَّها مرءٌ يكابدُ حَيْرَةً وخصاصةً إِلَّا اهْتَدَى وَتَمُـوَلَا
وأئمةٌ تلقى الدروس وسادةً تَشْفِي النفوسَ ودأؤها قد أعضلا
وحري بنا أن نذكر العمارة الإسلامية والحضارة التي كانت قائمة آنذاك، ففي
قصيدة لابن عنين يمدح فيها الملك^(٢) المعظم عيسى بن الملك العادل، وصف لمدينة
دمشق وقصورها فيقول^(٣):

أشأقك من عليا دمشق قصورها وولدان روضِ النيربين وحورها
ومنبجسٌ في ظلٍّ أحوى كأنه ثيابُ عروسٍ فاحَ منها عبيرُها
منازلُ أنسٍ ما أمحتْ ولا أمحتْ بمرّ الغوادي والسواري سطورُها
كأنَّ عليها عبقرٍ مطارفٍ من الوشي يُسديها الحيا ويُنيرُها
سقى الله دوحَ الغوطتين ولا ارتوى من الموصلِ الحذاءِ إِلَّا قبورها

(١) الكتبي، عيون التواريخ، ج ١٢، ص ٢٢٤.

(٢) القروم: جمع قرم وهو البعير، والبزل: جمع بزول وهي الناقة أو الجمل في تاسع سنيته.

(٣) الملك المعظم عيسى بن الملك العادل ولد سنة ٥٧٦هـ وكان مع علو همته عالماً بالعربية والفقهِ توفي بدمشق سنة ٦٢٤هـ ودفن بمدرسته المعظمية في الصالحية وله ترجمة في:

ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، ج ١، ص ٥٠١.

(٤) ابن عنين، ديوانه، ص ١٥.

فالشاعر يصف قصور دمشق، وأناقة عمارتها والجمال البشري فيها، ممزوجا بمشاعر الحزن والشوق، فقد أغنى قصيدته عندما تحدث عن الغزلان التي ترتع في روض النيربين والنهر والشجر والريح الطيبة، والبساط الأخضر المزدان بالزهور في الربيع، والمطر الذي يجدد شباب الطبيعة، وقد دفعه مشاعر الحب إلى الدعاء بالسقيا لدوح الروضتين.

تَظُنُّ ذُرَى لَبْنَانَ وَاللَّيْلُ عَاكِفٌ صَدِيعَ صَبَاحٍ مِنْ سَرَاهَا يُجِيرُهَا
وَقَدْ خَلَفَتْ رَعْنَ الْمَدَاخِلِ خَلْفَهَا وَنَكَبَ عَنْهَا مِنْ يَمِينِ سَنِيرُهَا

ويختتم القصيدة بمشاعر الفقد والرغبة في الوصال، وإعادة الذكريات الطيبة التي شهدتها جبال لبنان المكسوة بالثلج فأضاء المكان وطرد ظلمة الليل، لقد أبدع ابن عنين في وصف الطيف ومظاهر الطبيعة المختلفة كتلج حرمون وغوطة دمشق والبقاع ونهر بردى وتوظيفها لخدمة غرض القصيدة وهو المديح، لأنه كعادته يماهي بين مشاعره والطبيعة والثناء على الممدوح تأكيداً للنزعة الإنسانية.

بيد أن الشعراء قد نفذوا من مدح مدينة دمشق إلى مدح أهلها وتصوير ما يتصفون به من صفات كريمة ودمائة أخلاق ورعاية للغريب ووفاء للصديق وشجاعة في ميادين القتال فيقول القاضي أبو حامد الشهرزوري^(١):

فِيَا أَهْلَ جَلَّقَ حَيَّاكُمُ وَجَادَكُمُ الْعَارِضَ الْمَبْرُوقُ^(٢)
فَلَوْلَا لَطَافُكُمْ لَمْ تَكُنْ تَطِيبُ وَتَعَذِّبُ لِي جَلَّقُ
إِذَا خَفِقَ الْبَرْقُ مِنْ نَحْوِكُمْ يَبِيتُ فَوَادِي لَهُ يَخْفُوقُ
إِذَا مَا الْغَرِيبُ يُرَى بَيْنَكُمْ فَكُلُّهُ رَاحِمٌ مُشْفِقُ
وَإِنْ قَالَ أَعْدَاؤُكُمْ عَيْبُكُمْ مَلَأَ الصَّدِيقُ فَمَا صَدَّقُوا

(١) هو محيي الدين أبو حامد بن محمد بن عبدالله الشهرزوري، قاضي حلب، توفي سنة ٥٨٦هـ، انظر: الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، ج٢، ص٣٢٩. ابن عساكر، الحافظ أبو الحسن علي بن حسن تاريخ مدينة دمشق، مكتبة الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، (د.ت)، ج١٥، ص٤٥٨.

(٢) العارض: المطر.

تُرى أيّ وقتٍ دُعيتُمُ إلى لقاء العدو فلم تُعْنَقُوا؟^(١)

كأنكم لسوى المـكرما ت والضرب بالسيف لم تخلقوا

فقد تغنى الشاعر بأخلاق أهل دمشق الفاضلة، وقد أشار إلى جودهم وكرمهم وإغاثة الملهوف وإلى رقتهم ولطفهم وإحسانهم للغريب، ووفائهم للصدّيق، ونوّه بحماستهم وشجاعتهم في لقاء الأعداء والدفاع عن مدينتهم.

وإذا تجاوزنا هذه الأبيات وألقينا الضوء على إجماع الشعراء على محبة دمشق وتفضيلها على البلدان الأخرى، وتمجيد شيم أهلها في الكرم والوفاء والتي تبلغ آلاف الأبيات، طالعنا في ديوان فتيان الشاغوري^(٢) قصائد رائعة صدرت عن مشاعر صادقة وتسليم بفضل دمشق وأهلها جاءت ثمرة إقامة الشاعر فيها ومعاشرته الطويلة لها، والإشارة إلى تاريخها المجيد والدفاع عن العروبة والدين، وإسهام علمائها وأدبائها في حركة الفكر والإبداع وجمال طبيعتها وشجاعة أهلها، وكثيراً ما فضّل الشعراء دمشق على غيرها، ووقفوا عند مظاهر الجمالية التي تميزها، كما في أبيات فتيان الشاغوري الذي فضّل فيها الشاعر دمشق وجعلها مدينة لا نظير لها، لما فيها من مظاهر العمران، ولجمال طبيعتها وحسن أخلاق أبنائها، إذ يقول^(٣):

دمشق كالشمس لا نظير لها يوجدُ في سائر التصاوير
كأنها جنّة مُزخرقة زهت بولدانها وبالحوار
وكلُّ غصنٍ بكلِّ فاكهة دان لجاني الثمار مصهور

(١) تعنقوا: تسرعوا.

(٢) هو أبو محمد فتيان بن علي بن فتيان الأسدي الدمشقي المعروف بالشاغوري ولد سنة ٥٣٣هـ، قضى حياته معلماً وأخذ يقرأ النحو في جامع دمشق الكبير، وظل يمارس التدريس حتى توفي سنة ٦١٥هـ وقد شارف على التسعين، انظر ترجمته في: ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، ج٤، ص٢٦، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٦، ص٢٣٤، أبو شامة، شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي، الذيل على الروضتين في أخبار الدولتين، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٤، ص٥٤.

(٣) الشاغوري، فتيان، ديوانه، تحقيق أحمد الجندي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٧٦م، ص١٧٧.

وكل نهرٍ حصباؤه دُرٌّ جرى عليهنّ ذوبٌ كافورٍ
أماجُة كالخيولِ غائِرةً بهازمٍ كاسِرٍ ومكسورٍ
أسرعُ من أكلبٍ وثبنٍ وقد رأين، صيِّداً من السَّواجيرِ
مربعٌ خيمَ الربيعِ بهـ فما ترى قلبه مذعورٍ
رياضُها من بنفسجٍ بهجٍ ونرجسٍ مُضعفٍ ومنثورٍ

لقد أبرز الشاعر من خلال الأبيات صورة دمشق من حيث تفاصيلها الدقيقة، فهي جنة ازدحمت بكل أنواع الفاكهة ومرباعها انبتت الورد، وتأتي هذه اللوحة لتعبر عن جماليات المكان من خلال غناها بالألوان، إذ نرى الألوان ظاهرة قد طغت على هذه اللوحة بمعماريتها ومناظرها الطبيعية، فالألوان سمة بارزة تجملت بها الطبيعية، إذ تقاطعت الألوان مع مظاهر السرعة، فمن العدل بمكان أن نذكر هنا مظاهر السرعة التي سيطرت على الأبيات في البنى: (كانحناء الغصن لجاني الثمار، جريان الماء من أعالي الربوة، وتدافع الأمواج، والكلاب التي رأت صيداً غزيراً، ورقص المطر)، أما الألوان فتتشكل في: (الشمس، والربيع والخور والولدان، الأغصان، الجنة "بؤرة اللون"، والرياض).

هذه الألوان التي تغطي على جسم القصيدة، تتألف وتتجاوب بصورة حقيقية مع المضمون، الذي يتحدث عنه الشاعر "وصف مدينة دمشق"، فإذا كانت هذه المدينة جميلة حسنة الموقع، تنتشر حولها الجنان والرياض، فمن الطبيعي أن تكتسي معالمها الحضارية المعمارية، وطبيعتها ذات المناظر الخلابة، بالألوان الجميلة التي تشدّ الناس إليها لتبعث في نفوسهم الإعجاب.

وفي خاتمة القصيدة تنماهى مدينة دمشق مع الممدوح، فإذا الاثنان قد حازا صفات الكمال والجمال كلها، حيث يقول:

فكم حُسامٍ على منابرٍ شاذر روانها للمياه مشهورٍ
حازت صفات الكمال كالملكِ الصالح ذي المكرمات والخيرِ
سُبْحانَ مَنْ بالإحسانِ زَيَّتهُ والحسنِ في مُسندٍ ومأثورِ

إنَّ الشاعر في البيتين الأخيرين، يقرر الصفات التي يريد أن ينسبها إلى الممدوح، وتتمثل في فعل الخير، والبذل والعطاء والحسن والجمال. لذا تقاطعت في النص المفردات الجمالية التي اشرنا إليها مع مفردات الحركة التي تمثل (البذل والعطاء والشجاعة التي غالباً ما يصف بها الشعراء ممدوحهم، ويمكننا أن نقرّ بأن صورة دمشق قد تأطرت على حسب الصفات التي يود الشاعر إثباتها في ممدوحه.

إن الشاعر يضيف على مدينة دمشق هالة دينية، عندما يشبها بجنة عدن، ثم يأخذ بتفصيل صورة هذه الجنة، فيقرن أهلها برضوان أهل الجنة، ونسائها بالهور العين، ويصف جنانها التي تجري من تحتها الأنهار، فيقول^(١):

دمشقُ جَنَّةٌ عدنٍ ما يفارقُهَا رضوانُ ذو البشرِ والولدانِ والهورِ
ورودُها كخدورِ الغيدِ رانيَّةً سيقَتُ إلى سوقِها منه بواكيرُ
تقولُ حينَ بها أنهارُها اصطَفَّتْ أحلَّ تلجُّ بها أم ذابَ بلُورُ
كم جدولٌ عنده سرب يسير به فسرب به امن والماء مذعور
وكم اكف يواقيت محتمةً وصاليها ذلك المنظوم والمنثور

إن هذه التفاصيل الخاصة تكاد تقترب من الألفاظ القرآنية، في حين تحتفظ خيوطها الداخلية بالمسحة الإيمانية، وذلك من خلال ألفاظ مقصودة مثل: "جنة عدن- الحور- رضوان - الإمام الحق - تدعو لخالقنا - زور...." لقد تقاطعت هذه المفردات مع الخيوط الجمالية في النص: خدود الغيد، انهار، بلور، منظوم، منثور، لتشكل صورة الممدوح التي تعكس على صورة دمشق في النهاية، حيث تبدو دمشق وكأنها اكتست بهالة دينية شفافة تتنوع فيها مظاهر الجمال المختلفة.

ولم يقتصر الأمر عند شعراء القرن السادس الهجري على مدح مدينة دمشق فحسب، فقد مدحوا مدينة حلب كذلك وتغنوا بجمال طبيعتها، ومن القصائد المستحسنات التي قيلت فيها، قصيدة للرشييد النابلسي^(٢)، ذكر فيها جمال مروجها،

(١) الشاغوري، فتیان، ديوانه، ص ١٨٩.

(٢) هو عبد الرحمن بن بدر بن الحسن بن المفرج بن بكار أبو محمد النابلسي، ولد بدمشق سنة ٥٥٣هـ أشارت المصادر إلى اهتمامه بتحصيل الأدب واللغة، امتدح ملوك الشام بني

واتساع ميادينها، ولا سيما الميدان الأخضر الذي جدّه الملك الظاهر غازي،
يقول^(١):

فحبذا في حلبٍ مسـارحُ	للحُسْنِ رُوحُ الرُّوحِ في عيـانها
وحبّذا ما تَمَرُّحُ الأعينُ في	مروجهِ الفَيْحَاءِ من مَيّـانها
وما اكتستَ أقطارهُ من حُللٍ	تَتَوَقَّ الصَّانِعُ في ألوانها
وما جرى حَوَليهِ من جداولٍ	عَيْنُ الحَيَاةِ الوِرْدُ من غُدرانها
رَحْبُ مجالِ الخَيْلِ ممتدُّ مَدَى	السابقِ في الحَلْبَةِ من فُرسانها
لا يبلغُ الغَايَةَ من أقطاره	إلا فَتَى يُطْلِقُ من عِـانها
يُشْرِحُ إذ يحلُّه صَدْرُ الفتَى	وتَمَرِّحُ الجيادُ في أُرسانها

هكذا شكل وصف المدينة الشامية والحنين إليها ظاهرة واضحة في الشعر الشامي زمن الحروب الصليبية، وكان حديث الشعراء عن هذه المدينة يعكس الأبعاد الجمالية التي تتميز بها، وهي ليست جماليات هندسية أو معمارية فحسب، بل يقيم علاقات مع أشياء وعناصرها، يستنطقها ويشخصها ويستحضر جمالياتها المختلفة في ذاكرته، فقد أشار الشعراء إلى الطبيعية فيها: الربيع والمنتزهات والجنان والبساتين، ومختلف أنواع الأزهار، والنباتات طيبة الرائحة، كما ذكر سهولها ومدنها وقراها وقصورها وأهوائها وبنابيعها، وأهلها وما تميزوا به من صفات كريمة ومزايا فاضلة.

إنّ الشاعر يرصد هذه الجماليات لأنها تشكل مسرح أحداثه ومستودع أماله وآلامه، وأخيرا يمكن القول إن حنين الشاعر الشامي إلى المدينة، كان حنين إنسان عاشق متيم بها، فقد جسّد هذا الحب من خلال التغني بجمال مدينته، وما كان يضيفه عليها من عناصر بث الروح والحياة..

أيوب، انظر: الموصلي، ابن الشعار المبارك بن أحمد، عقد الجمان من شعراء هذا الزمان،

معهد إحياء المخطوطات العربية، القاهرة، (د.ت)، ج ١، ص ١٢٣

(١) الرقب، الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري، ص ٢٩١.

٢.١ وصف المدن المحتلة:

يعيش الأدباء تجاربهم الانفعالية الخاصة، كما أنهم يعيشون التجارب والأحداث العامة التي تنتاب الناس في البيئة المحيطة بهم، لينقل لنا الأديب بلوحته ما يعاينه قومه من هموم والآلام وأحزان مرتبطة بالكوارث السياسية والاقتصادية التي انبثقت عقب الحروب الصليبية، فالشعراء الشاميون كانوا يعالجون قضايا أمتهم وقومهم ويتطلعون إلى تحقيق ما وراء الشمس، ويصورون تحسرهم على المدن التي سقطت بأيدي الصليبيين.

وإذا كانت الحروب الصليبية قد دامت زهاء قرنين من الزمن، بدءاً يوم وضع الصليبيون أرجلهم بأرض الشام، يريدون الاستيلاء عليه، وكان ذلك سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة وانتهى أمرهم حين استولى الأشرف خليل بن قلاوون على مدينة عكا وهي آخر مدينة كانت بأيدي الصليبيين، وألقى بهم إلى البحر، عام اثنتين وتسعين وستمائة للهجرة، فمن الطبيعي أن تترك هذه الحروب أثراً واضحاً في الأدب، ومن الطبيعي أيضاً أن تكون سبباً ومحفزاً قوياً في إثارة رد فعل الشعراء الشاميين، فالشعر استيقظ في وقت مبكر للتحريض على رد العدوان، الذي اغتصب أرضهم ومدنهم وقراهم، وشتت شمل الأسر في البلاد، فالمدينة لدى الشعراء هي تجربتهم بها بل أن العلاقة التي تربط الشاعر بالمكان هي الذكريات والتأملات كما يقول الربابعة^(١).

لذلك كان الشعراء يصورون المدينة المحتلة، كيف كانت قبل الاحتلال وما تتحلى به من مناظر طبيعية خلابة وقصور وبساتين وجنان يمكن استعادتها في مخيلة الشعراء عن طريق الحلم "ولهذا فأن الأماكن التي مارسنا فيها أحلام اليقظة تعيد تكوين نفسها في حلم يقظة جديدة، ونظراً لأن ذكرياتنا عن البيوت التي سكنها نعيشها مرة أخرى كحلم يقظة، فأن هذه البيوت تعيش معنا طيلة الحياة....."^(٢).

فقد تحدث الشعراء عن اهتمام الفرنجة بتحصين المدن بعد الاستيلاء عليها، وحرصهم على توفير أسباب المنعة والحماية لها، فقد صور ابن عنين في معرض رثائه

(١) الربابعة، موسى، ظواهر الإنحراف الأسلوبي في شعر مجنون ليلي، مجلة أبحاث اليرموك،

مجلد ٨، عدد ٢، ١٩٩٠، ص ٥٦.

(٢) باشلار، جماليات المكان، ص ٤٤.

الملك المعظم عيسى الأسوار المنيعّة التي أقامها الفرنجة حول مدينة قيسارية، والأبراج التي علتّه، فيقول^(١):

ولقد شهـدتُك يوم قيساريّة والشمس قد نسج القتـام لها رداً
والكفرُ معتصمٌ بسورٍ مشرفٍ الـ أبراج، أحكم بالصفـيح وشيـداً
ووصف ابن القيسراني^(٢) بأسلوبٍ بيانيّ منعة مدينة الرُّها، وقوة أسوارها،
وتحصيناتها، وكثافة الأسلحة التي أقيمت حولها، إذ يقول^(٣):

وقد قلّدوا السيـف تحصيلـهم ولكنّه الناصـر الخاذلُ
وشققتُم إليها بحار الحـد يد ملتطمـاً موجة الهاطلُ
وخضتم غمار الرّدي بالرّدي وعن نفسه يدفع القاتلُ
وغالباً ما كان الفرنجة يقيمون قلاعهم وحصونهم فوق القمم العالية، وقد وصف
الشعراء منعتها وتحليقها في الذرى، واستعاروا له في الأغلب صورة النجم لإبراز هذه
السمة، وقد فصلّ ابن عقيل الزرعي في هذه الصورة واستخدم أساليب فنية متعددة
لتصوير منعة حصن صرخد^(٤) وعلوّه الشاهق، وذلك إذ يقول^(٥):

وسامقة البنيان سامية الذرى يرى دونها في المنعة القطب والنسرُ
تساوي ثراها والثريا فخاطبتُ بروج السّما أساس أبراجها الغرُ
وقد أبدى الشعراء اهتماماً ملحوظاً بذكر المدن والمواقع التي كان يحتلها
الفرنجة ثم استردها المسلمون، وتظهر هذه السمة بشكل جلي عند شهاب الدين

(١) ابن عنين، ديوانه، ص ٧٦.

(٢) هو (سيد الشعراء) أبو عبدالله محمد بن نصر بن صغير القيسراني، انظر: الذهبي، شمس الدين، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط، بيروت، ١٩٨٤، ج ٢٠، ص ٢٢٤.

(٣) ابن القيسراني، أبو عبدالله محمد بن نصير، شعر ابن القيسراني، جمع وتحقيق ودراسة: عادل جابر، الزرقاء، الوكالة العربية للتوزيع، ١٩٩١، ص ٣٣٥.

(٤) صرخد: بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق وهي قلعة حصينة، الحموي، معجم البلدان، مادة (صرخد) .

(٥) الزرعي، المختار من ديوان ابن عقيل الزرعي، ص ١٢.

محمود الحلبي، إذ يرى شفيق الرقب في بحثه^(١) بأن الشاعر استطاع رسم لوحات فنية متعددة لها لعل أجملها تلك اللوحة التي وصف فيها حصن المرقب^(٢) مصوراً ارتفاعه الشاهق، ومطاولته نجوم السماء، مشبها إياه وقد لفه الظلام بالغادة الحسناء، ويستطرد في الصورة فيجعل لها النجم الزهر قلادة، والهلال سواراً، والسها شنفاً، والنجوم التي تسمى القلب قلباً، والدجى حلّة، فيقول^(٣):

أوردتها المرقبَ العالي وليس سوى ماء المجرة في أرجائه نهـر
كأنه وكأن الجو يـكنفه وهم تمثله في طيها الفكر
يختال كالغادة العذراء قد نظمت منه مكان اللآلي الأنجم الزهر
له الهلال سواراً والسها شنف والقلب قلباً ومسودّ الدجى طرر

وصور الشعراء في سياق حديثهم عن الحروب التي خاضها المسلمون لاسترداد البلاد المحتلة، التدمير الذي ألحقه المسلمون بتحسينات الفرنجة ومنشأتهم وإحراقهم الأراضي الخاضعة لهم والاستيلاء على زروعهم، ومن ذلك عندما وصف تاج الملوك بوري غارة شنّها المسلمون على الشوبك وإحراقهم الزروع التي غرسها الفرنجة، وتدمير ما وقعت عليه أيديهم، ومن ذلك يقول^(٤):

ويوم غارتتـا لم أنسه أبداً وقد تيقظ قومٌ بعدما رقدوا
وأقبل الشوبك الممنوع جانبه قد أطافت به الطعانة النجد
ثم اجتبتينا ببيض الهند ما غرسوا والنار ما زرعوا فيه وما حصدوا
ثم ارتحلنا وخلفنا ديارهم بلاقاً ليس إلا البوم والوتد

(١) للاستزادة انظر: الرقب، شفيق، صورة المدينة المحتلة في الشعر الشامي زمن الحروب الصليبية، مجلة المنارة، آل البيت، ٢٠٠٠، ص ٣٦-٥٧.

(٢) المرقب: بلدة حصينة تشرف على ساحل البحر الأبيض وعلى مدينة بانياس، الحموي، معجم البلدان، (المرقب).

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٧، ص ٣١٧.

(٤) ابن أيوب، تاج الملوك بوري، ديوانه، تحقيق: محمد عبد الحميد سالم، القاهرة، هجرة للطباعة والنشر، ١٩٨٨، ص ١٣٦.

ووصف ابن منير الطرابلسي^(١) التدمير الذي أحدثته جيوش نور الدين بانطرسوس^(٢) ويحمور، وكثرة قتلى الفرنجة فيها^(٣):

أخلى ديار الشرك من أوثانها حتى غدا ثالوثهن نكيرا
رفع القصور على نضائد هامهم من بعد ما جعل القصور قبورا
بشواحب الألياط تقطوا في الظلا م قطاً، وتهوي في الصباح نسورا^(٤)
وقد كان للانتصارات التي حققها المسلمون على المحتلين، رنة فرح وسرور
تعم مختلف بلادهم، فكانت أنباء الانتصارات تسري في البلدان الإسلامية، إذ بتجدد
الانتصارات في أرجاء مدن الشام، تسود البهجة وتكتسي البلاد بأبهى حل الزينة،
وتزف البشائر إلى الملوك والأمراء والخلفاء، مسجلة فرح المسلمين، وقد خلد لنا
التاريخ والشعر الانتصارات الباهرة بقصائد تزخر بمشاعر الفخر والاعتزاز بالقادة
المسلمين، إذ أدرك شعراء المواجهة عصر الحروب الصليبية أن العلاج الناجح للداء
الصليبي يتمثل في ضم صفوف المسلمين وتوحيدها، فقد نموّا كل ملكاتهم الإبداعية
بتنظيم قصائد وأشعار تحرّض على طرد الصليبيين وتطهير المقدسات، وكان لفتح
الحصون والمدن الإسلامية صداها لدى الشعراء، ولاسيما أن السلاطين والملوك قد
غدوا محط رجا الأمة وموطن أملها، فلم يبخل أولئك الشعراء عليهم بالتهنئة، لذلك
كثرت في هذا العصر القصائد التي هُنا بها الشعراء القادة والحكام المخلصين بما
حقّقوه من انتصارات على أعدائهم.

(١) هو أبو الحسين أحمد بن منير بن أحمد بن مفلح الطرابلسي الرفاء، ولد سنة ٤٧٣هـ وتوفي
سنة ٥٤٨هـ من الشيعة الأثنى عشرية، ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق الكبير، ج ٢،
ص ١٠٠.

(٢) انطرسوس: بلدة من سواحل البحر الأبيض وهي من أعمال دمشق من البلاد الساحلية،
الحموي، معجم البلدان، (انطرسوس).

(٣) ابن منير، أحمد الطرابلسي، ديوانه، جمعة وقدم له: عمر التدمري، بيروت، دار الجيل،
طرابلس، مكتبة السائح، ١٩٨٦، ص ٢٢٤.

(٤) الألياط: الجلود، تقطوا: قطا قطوا: قارب في مشيه مع نشاط.

ويبدو مما سبق أن الشعراء الشاميين كانوا يتابعون انتصارات القادة واحدة تلو الأخرى، حتى لأصبح الشاعر يتغنّى بالانتصارات واحداً واحداً دون خلل أو إخلال، لكنه ليس بمؤرخ للمعارك، ولقد أحس شفيق الرقب المفارقة بين الشاعر والمؤرخ " فالشاعر لم تكن غايته رسم تفاصيل دقيقة للمعارك التي يتحدث عنها ولا استيعاب ما جرى من أحداثها وذلك لسببين : أولهما أن مثل هذا الاستقصاء ليس من غاية الشعر في المقام الأول، وثانيهما أن الشاعر قد لا يكون بين من يحضرون المعركة ليصفها كشاهد عيان، ثم إن المعركة الواحدة قد تختلف عن المعركة الأخرى في مراحل الكرّ والفرّ، وفي الاعتماد على أنواع من الأسلحة دون أخرى، وفي شؤون الكمين والبيات، إلى غير ذلك ولكنها لدى الشاعر حلقة في سلسلة التحرير ورفع راية الإسلام....." (١).

وتوسّع أسامة بن منقذ في تصوير الوضع النفسي للفرنجة، وحلّ على نحو دقيق حالة الانهيار التي أصابتهم على الرغم من حصانة مدنهم، وقد صاروا أسرى للتخيّلات المرعبة في النهار، حتى يحسبوا الرُّبَا جيوشاً، وأمواج البحر أساطيل متتابعة، فإذا حلّ الليل أمسوا فريسة للكوابيس النّغصة، وتخيّل السيوف مسلّطة عليهم، يقول (٢):

وقسمتَ الفـرنج شـطرين فهـذا عـانٍ وهـذا قـتيلٌ
والذي لم يـحن بسيفك من خـوٍ فـك أـمسى وعـقله مـخـبـولٌ
مـثل الخـوف بـين عـينيه جـيشاً لك في عـقر داره مـا يـزولُ
فالرُّبـا عـنده جـيـوش ومـوج البحر في كـلّ لـجـة أسـطـولُ
وإذا ما غـفا أقـضّ به المـضـى جـع في الحـلم سـيفك المـسلـولُ
وقد غلبت المعاني الدينية على الصورة التي رسمها الشعراء للمدن الإسلامية المحررة، فقد دأبوا على تقديمها في إطار يصف عودة الشعائر الإسلامية

(١) الرقب، شفيق، الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري، ٧٥.

(٢) ابن منقذ، أسامة، ديوانه، تحقيق: أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، القاهرة، عالم الكتب، (د.ت)، ص ١٩١.

لها، وتطهيرها من الرموز الدينية للصليبيين، فالرشيد النابلسي يصف مدينة القدس بعد استرجاعها من الفرنجة، وقد استهلها بإعلان فرحته بالفتح القدسي، ومن ذلك يقول^(١):

هذا الذي كانت الآمالُ تنتظرُ فليوفِ الله أقواماً بما نذروا
تجلّ عليه عن مدحٍ يحيط به وصفٌ وإن نظم المداح أو نثرا
لا تروين لفتوحٍ بعدها قصصاً وإن تعاضم منه الخبرُ والخبرُ

ولعل الرشيد النابلسي في هذه القصيدة يلجأ إلى التحدث عن النصر المبين الذي لا يخضع للتقريب أو التعليل، ثم يتحدث فيها عن تصارع الأحداث، ودور البطل فيها، والجهود التي بذلها في قتال الأعداء، وانقضاضه عليهم وفتكه بهم، لتظهر صورة القدس بعد الفتح وقد عادت إليها عناصر الجمال:

الآن طاب إلى البيت المقدس كالبيت المحرم إحراماً ومعتماً
يا بهجة القدس إذ أضحى به علمُ الـ إيمان من بعد طيّ وهو منتشرُ
يا نور مسجده الأقصى وقد رُفعت بعد الصليب به الآياتُ والسورُ
شتان ما بين ناقوسٍ يُدان به وبين ذي منطِقٍ يُصغي له الحجرُ
الله اكبرُ صوتٌ تقشعر لـه شُم الذرى وتكاد الأرض تنفطر
يا خاطباً جنة الفردوس ممهرها أجر الجياد لنعم الصهر والمهر
إن الرشيد النابلسي ضمّن قصيدته في إطار نسق جميل مترابط يحتوي على أساليب انفعالية، ومما لاشك فيه أن الصورة الدينية للمدينة تكبر وتتسع على امتداد الأبيات، بحيث امتزجت فيها الأشكال والألوان والأصوات في أشكال حية مؤثرة، فبدا كل ما في المدينة جميلاً مشرقاً، وتصل عناصر الجمال إلى قمته حين تتمثل القدس في صورة جنة الفردوس التي خطبها صلاح الدين وبذل رباط الخيل مهراً لها.

واهتمَّ العماد في إحدى قدسياته بتصوير انتقال القدس من حال إلى حال، والثناء على الرجل الذي نذر نفسه لتحريرها، وذلك إذ يقول^(٢):

(١) الحنبلي، أحمد بن إبراهيم، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق: ناظم ارشيد، بغداد،

وزارة الثقافة، ١٩٧٨، ص ١٦٦ - ١٦٧.

(٢) الأصفهاني، ديوانه، ص ٢٣٦ - ٢٣٠.

فلا يستحق القدس غيرك في الورى فأنت الذي من دونهم فتح القدس
ومن قبل فتح القدس كنت مقدساً فلا عدمتُ أخلاقك الطهرَ والقدسا
وطهرته من رجسهم بدمائهم فأذهبت بالرجس الذي ذهب الرجسا
نزعت لباس الكفر عن قدس أرضها وألبستها الدين الذي كشف اللبسا
وعادتُ ببيت الله إحكام دينه فلا بطركاً أبقيتَ فيها ولا قساً
إن الشاعر هنا يمزج بين صورة القدس وصورة البطل الفاتح، إذ قابل بينهما
في القداسة والطهر، غير أنه لم يكن معنياً بالتصوير عنايته بتشقيق الألفاظ والمعاني
واستدعاء والطباق والجناس والتكرار والكلمات ذات الدلالة الدينية، بيد إن البيت
الرابع لا يخلو من اللمحات التصويرية الذي جسد فيه المعنى المجرد ووضعه في
صورة حية دالة.

أما فتح الرها سنة ٥٣٩هـ، أول نصر كبير يحققه المسلمون، وأول هزيمة
كبرى تلحق الأذى بالصليبيين، فقد كان لفتحها أثر كبير في نفوس المسلمين، إذ
غرس بذور الأمل فيها وطغت عليها الفرحة وغمرتها البهجة فأقبل الشعراء يلونون
بكلماتهم المشرقة، لوحة جميلة لمعالم تلك الفرحة ولعل أبرز المهنئين كان ابن
القيسراني الذي استهل قصيدة، تغنى بقوة السلطان عماد الدين واتخذ السيف رمزاً
للقوة فيقول^(١):

هو السيف لا يُغنيك إلا جلادُه وهل طـوَّق الأملـاك إلا نـجـادُه
سمتُ قُبَّةُ الإسلام فخرًا بطوله ولم يكُ يسمو الدينُ لولا عمادُه
وفتحُ حديثُ في السماع حديثُه شهـيُّ إلى يـوم المعادِ معادُه
فالشاعر هنا يؤكد على سمو قبة الإسلام التي ازدادت سموها وفخراً بالنصر،
حتى غدا حديث النصر حلو المذاق، شهى ممتع، سائغ في القلوب والأسماع، لا يمل

(١) ابن القيسراني، شعر ابن القيسراني ، ١٤٨، وانظر: أبو شامة، الروضتين في أخبار
الدولتين: النورية والصلاحية، ج ١، ص ٣٧، وانظر: الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة
العصر، قسم شعراء الشام، ج ١، ص ١٥٤.

المسلمون تكراره وإعادة ذكره، ثم يعتبر الشاعر فتح الرُّها إيذاناً بأفول النجم الصليبي وبشرّ بزوال وجود الصليبيين.

ويصور الشاعر مدينة الرُّها غير حصّان على مدى خمسين عاماً، وكيف أن عماد الدين افترعها عنوة، وذلك يقول :

مدينةُ أفكٍ منذَ خمسينَ حجةً يَفُلُّ حديدَ الهندِ عنها حُدادهُ
وجامحةُ عزِّ الملوكِ قيادُها إلى أنْ ثأها من يعزُّ قيادهُ
فصدّتْ صدودَ البكرِ عند افتضاضها وهيهات كانَ السيِّفُ حتماً سفادهُ

وعقب استيلاء نور الدين على قلعة منبج سنة ٥٦٣هـ هنأه العماد الأصفهاني بقصيدة حثّه فيها على التوجه بسرعة لتطهير القدس وتحريرها، وغرس رايات الإسلام فوق طرابلس ونابلس، ومن ذلك يقول^(١):

بشرى الممالك فتح قلعة منبج فليهن هذا النصر كل متوج
أعطيت هذا الفتح مفتاحاً به في الملك يفتح كل باب مرتج

وفي سنة ٥٧٥هـ آلت قيادة حركة الجهاد ضد الصليبيين بعد رحيل نور الدين للناصر صلاح الدين، فحقق على يديه أكبر الفتوحات، إذ جمع جموعاً كثيرة من الخيالة والرجالة وتوجه إلى حصن بيت الأحزان^(٢) وحرره من الغزاة ففرح المسلمون بذلك، وأقبل الشعراء ينظمون القصائد ومن أبرزهم نشوء الدولة أحمد بن نفاذه الدمشقي فيقول^(٣):

هلاك الفرنج أتى عاجلاً وقد أن تكسير صلبانها
ولو لم يكن قد دنا حتفها لما عمّرت بيت أحزانها
وقد أشار أبو شامة المقدسي في كتابه الروضتين، أن سنة ٥٨٣هـ /
١١٨٧م، هي سنة الفتوحات الإسلامية، ولعل أول ما طالعنا الشعر عليه من

(١) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين: النورية والصلاحية، ج ١، ص ١٥٠.

(٢) بيت الأحزان: مخاضة على نهر الأردن، الحموي، معجم البلدان، (بيت الأحزان).

(٣) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين: النورية والصلاحية، ج ٢، ص ١١، ٢٠٩، وانظر:

الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، ج ١، ص ٥١٩.

انتصارات، كان استرداد طبرية^(١)، فقد انشد ابن الساعاتي قصيدة في هذه الموقعة مطلعها^(٢):

جَلَّتْ عِزَمَاتُكَ الْفَتْحَ الْمَبِينَا فَقَدْ قَرَّتْ عِيونُ الْمُسْلِمِينَا
رَدَدْتَ أَخِيذَةَ الْإِسْلَامِ لَمَّا غَدَا صَرْفُ الْقَضَاءِ بِهَا ضَمِينَا
وَهَابَ بِكَ الصَّلِيبَ وَكَانَ قَدَمَا يَغْرِ عَلَى الْعَوَالِي أَنْ يَهُونَا

ويشكل نص ابن الساعاتي لوحة فنية جميلة بما تكتنزه من فخر وتهنئة، إذ تحدث في الشطر الأول عن الفتح المبين الذي حققه جيوش المسلمين، فبهذا الفتح تحولت المدينة إلى قرّة أعين لجميع المسلمين بعدما كانت تحت حصار الصليبيين الذين عاثوا فيها فساداً وقتلاً وتشريداً، فتحولت الصورة هنا إلى مكان مطمئن يستقطب الناس إليه فرحاً بالانتصار، ويتابع ابن الساعاتي لوحته الفنية، وذلك بعدما ابتدأها بالدعاء والرضاء، يربط الشاعر بين المدينة والمرأة فيقول :

وَمَا طَبْرِيَّةٌ إِلَّا هَدْيٌ تَرْفَعُ عَنْ أَكْفِ اللَّامِسِينَا
حَصَانُ الذِّلِّ لَمْ تُقْذَفَ بِسَوْءٍ وَسَلَّ عَنْهَا اللَّيَالِي وَالسَّنِينَا
فَضَضَتْ خَتَامَهَا قَسْرًا فَمَنْ ذَا يَصَدُّ اللَّيْثَ أَنْ يَلْجَ الْعَرِينَا
لَقَدْ أَنْكَحَتْهَا صُومُ الْعَوَالِي وَكَانَ نَتَاجُهَا الْحَرْبَ الزَّبُونَا
قَسَتْ حَتَّى رَأَتْ كَفْئاً فَلَانَتْ وَغَايَةُ كُلِّ قَاسٍ أَنْ يَلِينَا
قَضِيَّتْ فَرِيضَةَ الْإِسْلَامِ مِنْهَا وَصَدَّقَتْ الْأُمَانِي وَالظُّنُونَا

فالنظرة التي يراها الشاعر هنا، هي صورة مدينة طبرية التي أصبحت أشبه بالفتاة البكر العفيفة، لم تقذف بسوء، فلا يمكن للشاعر أن يصورها مبتذلة لكل فاتح متغلب وذلك لجعلها عروساً لبطله المسلم، وكأن الشاعر أراد أن يرصد لنا جمالية الفتح، بصورة مرتبطة بحالته النفسية وذاكراته الماضية، فجماليات الصورة تتشكل

(١) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين: النورية والصلاحية، ج ٢، ص ٧٥.

(٢) ابن الساعاتي، علي بن رستم، ديوانه، تحقيق أنيس المقدسي، بيروت، المطبعة الأمريكية،

١٩٣٨، ج ٢، ص ٤٠٦.

من خلال تجربة الشاعر فيها لأنها مسرح أحداثه ومستودع أماله وآلامه، فكان يتشوق إلى مدينة طبرية قبل احتلالها من خلال علاقته بإنسانها وأهلها وأجوائها، بمعنى أن المدينة كانت تكتسب قيمة عند الشاعر بمقدار ارتباطه بتجربته وأيامه وذكرياته فيها، وكلما كانت المدينة محببة للشاعر كلما ازداد حضورها في فكره ووجدانه، واحتلت مساحة واسعة من اهتمامه وعنايته.

ونرى هذا المشهد مماثلاً عند شهاب الدين محمود، في صفه لفتح مدينة طرابلس بعد أن استردها المسلمون بقيادة الملك المنصور بن قلاوون، فقد ظهرت المدينة في صورة فتاة ممنة تعاونت على اقتحامها عزيمة الممدوح، ويلاحق الشاعر الصورة الأنثوية فيصف المدينة بأنها بكر، وأنها لحظة فتحه لها (انثت تميد)، فيقول:

ممنعةً بكرٌ وهل في جميع ما تملّكته إلا ممنعةً بكرٌ
فكم مرّ من دهرٍ وما مسّها أذى وكم راح من عصرٍ وما راعاها حصرٌ
ففاجأتها بالجيش كالموج فانثنت تميدٌ وقد أربى على نحرها السبّرُ
فززلتها بالركض فانهدّ ركنها ولم يبق من دون المنايا لها سترُ
أن صورة المدينة وتفاصيلها تختلف عندما تكون المدينة المفتوحة في حوزة أحد حكام المسلمين، فعندما بذل مجير الدين صاحب دمشق الطاعة لنور الدين الزنكي، وتقرر الصلح بينهما سنة ٥٤٥هـ، انشد ابن القيسراني قصيدة رسم فيها صورة محببة لدمشق، فقد جرى البناء بها وفق الشريعة الإسلامية، إذ خطبها نور الدين ووافق وليها على ذلك، وقد قدّم إليها مهراً كبيراً من الأمن والعدل، وأصبحت على مر الأيام تسر حباً لنور الدين، على الرغم من امتناعها عنه في البداية وذلك دلالةً منها، فيقول^(١):

خطبتَ فلمْ يحجُبْكَ عنها وليّها وخطبُ العُلَى بالسيف ما دونه سترُ
جلاها لك الإقبال حورية السنّا عليها من الفردوس أردية خضر

(١) ابن القيسراني، شعر ابن القيسراني، ص ١٩٤

خلوبٌ أَكَنْتُ من هَوَاكَ محبةً نَمَتْ فانتَمَتْ جهراً، وسرُّ الهوى جهرُ
فسُقَّتْ إليها الأمنُّ والعدلُ نحلةً فأُمسَتْ ولا أسرُّ تخافُ ولا إصرُ
فإن صافحتُ يُمنَّاكَ من بعد هجرها فأحلى التلاقي ما تقدمه هجرُ
وهل هي إلا كالحصان تمنعتُ دلالةً، وأن عزَّ الحيا وغلا المهرُ
ولكن إذ ما قستها بصادقها فليس له قدرٌ وليس له قدرُ
وكذلك مدينة حلب نراها عند ابن الساعاتي عقيلة بكرةً، جميلة القدّ، أسيلة
الخد، عفيفة مصونة عن البذل، وينفذ الشاعر إلى معنى دقيق لأنها لم تعص صلاح
الدين تمنعاً وتأييماً، وإنما غضبت وغازت لأنه أهملها واهتمَّ بغيرها من المدن
الشامية، فيقول^(١):

هي العقيلة حُسنا والزمان بها متيمٌ كَلِفُ الأحشاء غير خلي
رشيقة القدّ لا تسمو إليه يدُ أسيلة الخدّ لا تدنو من القبلِ
بكر المعازل فاخطبها مكابرة بكلّ ألمى أصم الكعبِ معتدلِ
فما سواك لها بعلٌ وقد عطلتُ فحلّها بتلافيتها من العطـلِ
غازتُ، وحقّك، من جاراتها فشكتُ ما باله بافتضاضي غير محتفلِ
وعن الحديث عن وصف المدن المحتلة، لا بدّ من التطرق إلى بعض الصور لحياة
الفرنجة في هذا العصر، إذ نقل المؤرخون والكتاب المسلمون زمن الحروب
الصليبية صوراً مختلفة من حياة الفرنجة في المدن التي استولوا عليها، وسجلوا
صوراً متفرقة من سمات الإفرنج وصفاتهم في الشعر والنثر، ومظاهر السلوك
اليومي التي كانوا يمارسونها، ولعل أغلب تلك المظاهر مما وقع ضمن مشاهدات
بعضهم، لاسيما ابن جبير وأسامة بن المنقذ اللذان دخلا البلاد المحتلة ولمسا جوانب

(١) ابن الساعاتي، ديوانه، ج ٢، ص ٣٨٣.

من عادات القوم وتقاليدهم^(١). ومن الشعراء الذين دخلوا تلك البلاد ابن القيسراني، فقد ذكر العماد الأصفهاني نقلاً عن الفقيه عبد الوهاب الدمشقي أن هذا الشاعر دخل " سنة أربعين وخمسمائة بلد أنطاكية لحاجة عرضت له، فنظم مقطعات يشبب فيها بإفرنجيات... " ^(٢)، وأطلق على هذه المقطعات اسم " الثغريات ".

إن الأشعار التي قالها ابن القيسراني في البلاد المحتلة، من حيث المضمون، تُغني الصورة التي رسمها المؤرخون للحياة الاجتماعية للفرنجة، فقد نقل فيها صوراً من حياتهم في كمجالس لهوهم وأعيادهم وكنائسهم وأديرتهم، ولو تتبعنا الطريق التي سلكها الشاعر لأمكننا إن نقول إن أولى ثغرياته تلك التي قالها وقد اجتاز بلدة عزاز^(٣) من ضواحي حلب، ويظهر منذ البداية انبهار الشاعر بالنساء الصليبيات، فيصف حسن وجوههن وجمال عيونهن، واعتدال قامتهن، ودقة خصورهن، وطريقة تسريحهن لشعورهن، إذ يقول^(٤):

أين عزّي من روحتي بعزاز	وجوازي على الطّباء الجـوازي
واليعافير ساحبات المغافير	رّ، علينا كالربّرب المجتـاز
بعيون كالمرهفات المواضي	وقدودٍ مثل القنا الهـزاز
ونحورٍ تقلدت بثغور	ريقها ذوبٌ سكر الأهـواز
ووجوه لها نبوةٌ حسن	غير أنّ الإعجاز في الأعجاز
وسبتتي لها ذوائبٌ شعر	عقدتها تاجاً على أبرواز

(١) للاستزادة انظر تفصيل ذلك في: الرّقّب، شفيق، صور من الحياة الاجتماعية للفرنجة في النثر الفني زمن الحروب الصليبية، مجلة دراسات الجامعة الأردنية، المجلد ٢٣، العدد ٢، ١٩٩٦، ص ٣٣٥ - ٣٥٠.

(٢) لأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، ج ١، ص ٩٩.

(٣) عزاز: بلدة شمال حلب، الحموي، معجم البلدان، (عزاز) .

(٤) ابن القيسراني، شعر ابن القيسراني، ص ٢٤٩.

ونمضي مع الشاعر في رحلته نحو الأثارب - بين حلب وأنطاكية، فيصف نساءها الجميلات في مقطوعة شعرية تشي بميل الشاعر إلى التعابت^(١)، ويقف بعد ذلك على حانة بجسر الحديد على باب أنطاكية، وتحدث في مقطوعة شعرية عن لهوه فيها، وتمتعه بخمرها ومغازلته خماراتها، إذ يقول^(٢):

إِنْ كَانَ لَا بَدَّ مِنَ السُّكْرِ فَمِنْ يَدَيَّ خَمَّارَةُ الْجِسْرِ
خَمَّارَةٌ تُطْلَعُ مِنْ نَحْرِهَا جُمَّارَةٌ بِيضَاءَ مَنْ نَحَرَ
تُمْسِي فْتُمْسِي الرَّاحُ فِي رَاحِهَا تَهْدِي سَنَا الشَّمْسِ إِلَى الْبَدْرِ
حَتَّى إِذَا دَارَتْ عَلَى شَرْبِهَا الْحَاطُّهَا أَغْنَتْ عَنِ الْخَمْرِ
مَا زَرْتَهَا إِلَّا وَبَاتَتْ يَدِي أَوْلَى مِنَ الزَّيْتَارِ بِالْخَصْرِ

ويدخل شاعرنا أنطاكية ويسجل بعض خواطره وتجاربه فيها، فقد رأى من مولداتها اسمها "ماريا" من أحسن الناس خلقاً وخلقاً تغني بالدف لتغايظ النصارى وتستميل قلوب المسلمين، إذ يقول^(٣):

عَلَقْتُ بِحَبْلِ مَنْ حَبَالَ مُحَمَّدٍ أَمَنْتُ بِهِ مِنْ طَارِقِ الْحَدَثَانِ

ويتجول الشاعر في شوارع أنطاكية فيصف جمال بنيانها، وروعة قصورها ويطرب لما يراه من فتنة صارخة، فيحرق النظر في نوافذ المنازل لاستجلاء طلعات الحسان، ومن ذلك يقول^(٤):

وَاحْرَبَا فِي الثَّغُورِ مِنْ بَلَدٍ يَضْحَكُ حَسَنًا كَأَنَّهُ ثَغَرُ
بِهِ قُصُورٌ كَأَنَّهَا بَيْعٌ نَاطِقَةٌ مِنْ خِلَالِهَا الصُّورُ
هَالَاتُ طَاقَاتِهِنَّ أَهْلَةً يَبْسُمُ عَنْ كُلِّ هَالَةٍ قَمَرُ
سَوَافِرٌ كُلَّمَا شَعَرَ بِنَا بَرَقْعُهُنَّ الْحِيَاءُ وَالْخَفَرُ

(١) ابن القيسراني، شعر ابن القيسراني، ص ١٠٨.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٣٩.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٨١.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢١٢.

من كل وجه كأن صورته بدر، ولكن ليله شعر
أما الكنائس فيقف الشاعر عندها طويلاً، إذ غدت الكنائس في نظره معارض
للجمال الوافد فيتعمد دخولها، ليتصيد لقاء الحسان فيها، دون أن يفرق بين راهبة
وقدسية ومصلية، ويصفهن وقد ارتدين المدارع ووضعن في أوساطهن الزنانير
فيقول^(١):

كم بالكنائس من مبتلة مثل المهابة يزينها الخفر
من كل ساجدة لصورتها لو ألصقت سجدت لها الصور
قديسة في حبل عاتقها طول، وفي زئارها قصر
غرس الحياء بصرن وجنتها ورداً سقى أغصانه النظر
وحكت مدارعها غدائرها فأراك ضعفي ليلة قمر
وبعد،،،،

هكذا ظهرت صور المدينة المحتلة في الشعر الشامي، تتراوح ما بين
الهبوط والصعود فتارة نجد لوحات فنية سوداوية تتسم بالمعاناة والكآبة، لما آلت إليه
المدينة التي اختفت جمالياتها، نتيجة الدمار الذي أصابها، والتشويه الذي ألحق الأذى
في معالم القداسة فيها، مما اضطر الناس إلى الرحيل من تلك المدن بحثاً عن الملاذ
والأمن، وتارة أخرى نرى الشاعر يرسم لنا لوحات ناطقة تشي بتفاعل الشاعر مع
هذه الأمكنة، نتيجة للانتصارات التي حققها المسلمون، وتصوير أجواء الفرح
والسرور التي عمتها، والربط المتكرر بين المدينة المفتوحة والمرأة، كما نقل لنا
الشعر صوراً تمثل بعض المعالم الدينية والعمرانية والاجتماعية للفرجة في المدن
التي استولوا عليها واستوطنوا فيها.

(١) ابن القيسراني، شعر ابن القيسراني، ص ٢١٥.

الفصل الثاني هجاء المدن

١.٢ هجاء المدن

احتل شعر الهجاء حيزاً كبيراً من شعر القرن السادس والسابع الهجريين، ولم يكن هجاء المدن ظاهرة جديدة على شعر هذا العصر، إذ عرف واشتهر في عصور سابقة^(١) وهذا ما أكدّه مصطفى هدارة عندما عدّ هجاء المدن وضمها، من الألوان الجديدة في فن الهجاء الذي ظهر في القرن الثاني الهجري^(٢)، واستمر الشعراء في هذا العصر على نهج سابقهم.

ازدهر هذا الفن وتنوعت أغراضه، فنجد بعضه جاداً لا أثر لروح الدعابة والنكتة فيه، ونجد الهجاء الساخر الذي ظهرت عليه مظاهر التطور في الشكل والمضمون، وتراوح هذا التطور بين الهبوط إلى درجة السباب والفحش والابتذال، وبين التصوير الهزلي الساخر الذي يهدف إلى النقد عن طريق الإضحاك.

أما دوافع هجاء المدن في هذا العصر، فقد تعود إلى موقف شخصي، ونزوع ذاتي، وقد تعود إلى عوامل اجتماعية نتجت عن علاقة الشاعر بالمدينة وسكانها، وما نتج عن هذه العلاقة من موقف عدائي - أحياناً - فقد يدفع ضيق حال الشعراء إلى ذم المدينة، وانتقاد لقيم سكانها وسلوكياتهم.

كانت دمشق من أكثر المدن تعرضاً للهجاء، فقد نسج ابن عنين كثيراً من القصائد والأشعار في السخرية والانتقاص من قدر أهلها، ويعد ابن عنين من أشهر شعراء الهجاء والنقد الاجتماعي البارزين زمن الحروب الصليبية في بلاد الشام، فقد تميز شعره بقيامه على النظرة الهجائية، وقد أشارت المصادر إلى تأصل هذه النزعة فيه وولعه بالهجاء وتلب أعراض الناس^(٣) وأنه قلّ أن سلم أحد من الرؤساء

(١) انظر: حسين، الهجاء والهجاؤون في صدر الإسلام، ص ٣٤ - ٤٠،

(٢) هدارة، محمد مصطفى، اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري، دار المعارف، مصر، ١٩٨١م، ص ٤٣٠.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، ج ٥، ص ١٤.

والملوك وأرباب العلم والمناصب من لسانه^(١). وقد وصفه معاصروه بأنه سخيـف اللسان، قبيح الهجاء، أغري بهجاء الناس وتمزيق أعراسهم^(٢)، حتى أنه نظّم في أهل دمشق قصيدة طويلة سمّاها (مقراض الأعراض)^(٣)، تناول فيها شخصيات اجتماعية متعددة من فقهاء وخطباء وقضاة وقد أفحش في أبيات هذه القصيدة متجاوزاً حدود العرف والذوق^(٤).

ولعل هذا يعود إلى إحساسه بالنقص، فقد نشأ في أسرة ضئيلة، لم تربّه، كما يقول على فعل الخير، ويتضح ذلك في قوله^(٥):

وَجَنَّبَنِي أَنْ أَفْعَلَ الْخَيْرَ وَالْـدُّ ضَيْئِلٌ إِذَا مَا عُدَّ أَهْلُ الْمُنَاسِبِ
بَعِيدٌ عَنِ الْحُسْنَى قَرِيبٌ مِنَ الْخَنَا وَضِيعٌ مَسَاعِي الْخَيْرِ، جُمُ الْمَعَايِبِ
إِذَا رُمْتُ أَنْ أَسْمُو صَعُوداً إِلَى الْعُلَى غَدَا عِرْقَةٌ نَحْوَ الدَّنِيَّةِ جَاذِبِي
وكان ابنُ عَنِينٍ قد أكثر من التجوال والتطواف في البلدان، واطّلع على كثير من مظاهر الحياة، والمفاسد والانحرافات في السلوك الإداري والسياسي والاجتماعي آنذاك، بالإضافة إلى ملبسته لحياة العلماء والفقهاء في مجالسهم وحلقاتهم، ووقوفه على مظاهر شتى، حتى تنوعت النماذج البشرية والمظاهر الحياتية التي هجاها ابن عَنِينٍ في دواوينه.

ولعلّ ذم الشعراء لمدينة دمشق يعود إلى أسباب سياسية تتعلق بالسياسة، إذ بعد وفاة السلطان صلاح الدين، كان المشهد السياسي في بلاد الشام مجالاً من مجالات السخرية والهزل في شعر ابن عَنِينٍ، لاسيما الصراع الذي نشأ بين أبنائه

(١) ابن الشَّعَار، قلائد الجمان من شعراء هذا الزمان، ج٦، ص١٩٩

(٢) باشا، عمر موسى، الأدب في بلاد الشام في عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك، المكتبة العباسية، دمشق، ١٩٦٤م، ص٣٥٧.

(٣) الصفدي، الوفي بالوفيات، ج٥، ص١٢٢.

(٤) ابن عَنِينٍ، ديوانه، ص١٧٩ - ١٨٤.

(٥) المرجع نفسه، ص٢٣٩.

على الخلافة، فهذا الاضطراب السياسي دفع الشاعر إلى الزهد في سكنى دمشق،
وتفضيل الإقامة بعيداً عنها، حتى لا يكتوي بنار القائمين عليها فيقول^(١):

وتقول أهل دِمَشقَ أَكْرَمُ مَعشَرٍ وَأَجْلُهُمُ وَدِمَشقُ أَفْضَلُ مَنْزِلٍ
وَصَدَقْتَ إِنَّ دِمَشقَ جَنَّةٌ أَل(م) دُنْيَا وَلَكِنَّ الْجَحِيمَ أَلْذُّ لِي
لَا الْحَاكِمُ الْمَصْرِيُّ يَنْفُذُ حُكْمَهُ فِيهَا عَلَيَّ وَلَا الْعَوَانِي الْمَوْصِلِي(٢)
هِيَهَاتَ أَنْ أَوِي دِمَشقَ وَمَلْكُهَا يُعْزَى إِلَى غَيْرِ الْمَلِكِ الْأَفْضَلِ(٣)
وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنْ يَقُومَ بِهَا أَبُو بَكْرٍ وَقَدْ عِلِمَ الْوَصِيَّةَ فِي عَلَي(٤)
مَهْلًا أَبَا حَسَنٍ فَتَلْكَ سَحَابَةً صَيْفِيَّةٌ عَمَّا قَلِيلٍ تَتَجَلَّى

ففي هذه المقطوعة لم تفارق ابن عنين النزعة الهجائية، واستغلاله الأحداث
السياسية التي يستخلص منها معاني هزلية قائمة على تصوير التناقضات في بعض
الأحوال السياسية، ولاسيما أن الأبيات تخفي وراءها إحساساً بالغربة والمعاناة إذا
بقي في دمشق.

أما صورة حلب، فتبدو أوضح في هجاء ابن عنين، حيث يتسلسل الشاعر في
عرض المفردات للمدينة التي تجعل في النهاية صورة حلب، قد لفت بكل ما يأنفه
الإنسان حيث يقول^(١):

(١) ابن عنين، ديوانه، ص ٨٥.

(٢) يريد بالحاكم المصري: جمال الدين يونس بن بدران بن فيروز المصري قاضي قضاة في
دمشق توفي سنة ٦٢٣هـ . ويريد بالموصلي: المبارز إبراهيم بن موسى المعروف بالمعتمد
أصله من الموصل وقدم الشام وصار شحنة دمشق واستقر فيها أربعين سنة وكان محمود
السيرة توفي سنة ٦٢٣هـ. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٥. أما لفظة العواني: فهي
عامية وما زال أهل دمشق ينبزون بها من لا يؤمن شره من أعوان الحكومة ولعل أصلها
أعواني نسبة إلى أعوان الحكومة، وللأعوان معنى آخر أيضاً فمن أمثال العرب " إذا جاءت
السنة جاء معها أعوانها " يعنون بالسنة الجذب وبالأعوان الجراد والذباب والأمراض.

(٣) الملك الأفضل: هو علي بن السلطان صلاح الدين.

(٤) أبو بكر: الملك العادل، وعلي: الملك الأفضل، ويشير بذلك إلى أخذ الملك العادل دمشق من
ابن أخيه الملك الأفضل سنة ٥٩٢هـ.

لا عَادَ في حَلَبَ زَمَانٍ مَرَّ لِي ما الصُّبْحُ فِيهِ مِنَ الْمَسَاءِ بِأَمَثَلِ
سيان في عرصاتها رَأد الضحى عِنْدِي وَ دِيْجُورُ الظَّلَامِ الْمُسْبِلِ^(٢)
في مَعَشَرَ لَعَنُوا عَتِيقًا لَا سُقُوا صَوَّبَ الْغَمَامَ وَمَعَشَرَ لَعَنُوا عَلِي
قومٌ عهودٌ رجالهم محلولةٌ أَبَدًا وَعَهْدُ نِسَائِهِمْ لَمْ يُحْلَلِ
من كلِّ مائسةٍ القوامِ رشيقةٌ رُودِ الشَّبَابِ كـدَمِيَّةٍ فِي هَيْكَلِ
خطية الخطواتِ يثني قَدَهَا مَرَحٌ فِيهِزَأُ بِالْوَشِيحِ الذُّبُلِ
فالأبيات يمتزّ فيها الهجاء السياسي في أهل حلب، وقد نفذ من ذلك إلى
السخرية من تشيعهم، منكرًا عليهم لعنهم للصحابة، وصعد الشاعر من نغمة الهجاء
لأهل المدينة عندما صورّ فساد نساءهم.

ويبدو من أبيات ابن عنين، أن نفسه كانت تمتلئ غيظًا، ممّا جعله يهدد أهل
المدينة بحملة هجائية ضارية، يتداولها الناس فيما بينهم، وقد تجاوز الشاعر هذا إلى
الفحش في القول، والطعن في أعراض أهل المدينة، في أواخر الأبيات فيقول:
ولسوف أعربٌ من غريبِ صفاتهم مستأنفًا ما فات في المسـتقبلِ
بقلائدٍ ما أنشدت في محفلٍ إلّا وكانت عقلة المستعجلِ
شعرٌ يقطعُ بالنعالِ أخادعَ الأ (م) عشى ويحرا في عوارضِ جرول^(٣)
أما فتیان الشاغوري فقد ركّز في هجاءه لمدينة دمشق، على شيم أهلها واتصافهم
بالبخل، وقلة الإحسان، ومما قال فيهم، مشهراً ببخلهم الذي قصر عن بيوت الله^(٤):

أهلُ دمشقٍ لهمُ جامعٌ ليسَ على ما فيه تَعْوِيلُ
بالجامعِ الصحنُ ولكنّه من كلِّ ما يؤكّلُ مَغْسُولُ

(١) ابن عنين، ديوانه، ص ٢٣٠.

(٢) رَأد الضحى: وقت ارتفاع الشمس وانبساط النور في أول النهار، والديجور: الظلمة الشديدة.

(٣) الأعشى: ميمون بن قيس الشاعر الجاهلي المشهور، وجرول: هو الحطيئة الشاعر المخضرم المشهور.

(٤) الشاغوري، ديوانه، ص ٣٦٢.

وَفِيهِ أَشْجَارٌ وَلَكِنَّهَا لَمْ يَجْنِ مِنْهَا الدَّهْرَ مَأْكُولٌ

ومن الملاحظ هنا إن هجاء فتیان الشاغوري هذا ناتج عن موقف شخصي، إذ أنه لم يلق فيها حفاوة وإكرام كما كان يتوقع، وهنا الشاعر يبعث في نفسه التعجب من بخلهم وعدم إكرامهم، فهم يمتلكون الأشجار المليئة بالثمار، ولكنها لم تُجَن دلالة على إلصاق صفة البخل بأهل دمشق، ويأسى الشاعر في موطن آخر من ديوانه، من تجاهل أهل دمشق له وإغضائهم عن محاسنه بقوله^(١):

أَرَانِي غَرِيباً فِي دِمَشْقَ، وَأَهْلُهَا بَصِيرُونَ بِي لَكِنْ عَمُوا عَنْ مُحَاسِنِي
فِيَا ضَيَعْتِي فِيهِمْ وَفَضْلِي ظَاهِرٌ كَأَنِّي لَدَيْهِمْ مَصْحَفٌ عِنْدَ بَاطِنِي

هنا يشكو الشاعر غربته عن دمشق وأهلها، الذين تجاهلوا محاسنه وأضاعوها بالنزاعات الشخصية، فهو يستشعر الغربة والوحدة في دمشق.

وتتعرض دمشق لمثل هذا الهجاء من قبل ملك النحاة الحسن بن صافي^(٢)، إذ كان "مرّ الشنينة"^(٣) تبرم من دمشق، وعبر عن كرهه برغبته في الرحيل عنها، حيث لم يعد يحتمل ماءها وهواءها الفاسدين، فهو لا يقيم على قذى في دمشق وذلك يقول^(٤):

لَأَرْحَلَنَّ مَطِيَّتِي عَنْ بَلَدَةٍ شَعَاءَ يُكَرَهُ مَآؤُهَا وَهَوَاؤُهَا
لَأُرْمِيَنَّ دِمَشْقَ غَيْرَ مُجَحِّفٍ بِفَوَاقِرَ التَّبَسُّتِ لَهَا أَبْنَاؤُهَا^(٥)
لَأَزْجُرَنَّ الْعَيْسَ عَنْهَا مُعْرِضاً إِنْ أَقْدَرْتَنِي دَوْلَةٌ وَلَوْ أَوْهَا
فَالْإِلَامَ أَغْضِي فِي دِمَشْقَ عَلَى قَذَى وَالْأَرْضَ نَازِحَةً بِهَا أَرْجَاؤُهَا

(١) الشاغوري، ديوانه، ص ٥١٨.

(٢) الشاعر هو الحسن بن صافي المعروف بملك النحاة ولد ببغداد ثم دخل الشام واستوطنها توفي سنة ٥٦٨هـ، ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق الكبير، ج ٤، ص ١٦٩.

(٣) الأصفهاني، العماد، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم العراق، تحقيق: محمد بهجة الأثري، وجميل سعيد، مطبعة المجمع العلمي، العراق، ١٩٥٥، ج ٣، ص ١٣٦.

(٤) المرجع نفسه، قسم العراق، ج ٣، ص ١٢٤.

(٥) مجحّف: بالتضعيف: مضرّ، الفواقِر: الدواهي.

بعد تسليط الأضواء على ذمّ دمشق وأهلها، لم يتوان الشاعر ليذمّ مناخها وطبيعتها، فسخط الشاعر على أهل دمشق، دفعه إلى تشويه المشهد الطبيعي للمدينة، فنعتها بأنها شعثناء يكره مأواها وهوأوها، لذا فهو عازم على الرحيل من هذه المدينة، باحثاً عن مأوى آخر، مهدداً أبناءها بقصائد (فواقر) تقصم ظهورهم.

وأكثر ابن دنينير^(١) من هجاء أهل دمشق، لأنه لم يلق منهم التقدير الذي يعتقد أنه يستحقه، وكان شديد الوطأة في الهجاء، على نحو ما نرى في الأبيات التالية التي يصفهم فيها بأنهم مطبوعون على اللؤم والجهل والبخل وقول الزور، ومفطورون على فساد الأخلاق وانعدام الغيرة على الأعراض فيقول^(٢):

لم أجد بالشّام من يرجى له	جودٌ كفّ لفنتيل أو نقيـرُ
خلّقوا للؤم طُوراً والخـنى	ومقالِ الزّور والجهل الغزيـرُ
ودمشقُ جنّةٌ قد ملئت	من أهاليهم بأرباب السعيرِ
لا يجودون بمال أبداً	بل يجودون بربّات الخـدورِ
ما يرى العافون حظّاً لفمٍ	عندهم، بل عندهم حظّ.....

وقد اتخذ ابن منير الطرابلسي الدافع المذهبي وسيلة لهجاء دمشق وأهلها، وقد وُصف بأنه كان " خبيث اللسان، مهيناً لأعراض الرجال، يسهل عليه الهوان، ولا يسلم أحد من هجائه.... " ^(٣) ومن ذلك القصيدة التتيرية التي تحدث فيها بأسلوب هزلي، عن بعض معتقدات الشيعة، إذ يحمل فيها على أهل دمشق، وجردّهم من القيم

(١) هو إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن علي بن هبة الله بن يوسف بن نصر بن احمد اللخمي القابوسي الموصلّي. انظر: الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٧٩، ج١، ص١٠. ابن دنينير، إبراهيم بن محمد بن إبراهيم، ديوانه، تحقيق: محمود شاکر سعيد، جامعة الأزهر، القاهرة، ١٩٨١، ص٦٠٦.

(٢) ابن دنينير، ديوانه، ص٦٠٦، وللاستزادة انظر: ص٥٩، ١٩٨، ٦٥٦.

(٣) العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج١٥، ص٣٠٥.

والفضائل، فوصفهم بالضلال وضعف الدين والطيش، إلى غير ذلك من الصفات التي تزرى بهم، فيقول^(١):

وأعنتُ ضلال الشـ	م على الضلال المشتـ
وسكنتُ جلقَ واقتـ	تُ بهم وإن كانوا بقرَ
بقرَ ترى بحليمهم	طيش الظليم إذا نفرَ
وهواؤهم كهوائهم	وخليطُ مائهم القذرَ
وعليمهم مستجـ	وأخو الديانة محتقرَ
وخفيـهم مستثـ	وتقيـهم فيه العـ
وطباعهم كجبالهم	جبلت وقدت من جرَ

ومن معرة النعمان نسمع صوت أبو المواهب المعري^(٢) يهجو مدينة دمشق وأهلها، ويصفهم بالبخل وأنهم لا يوفون بالوعد، وأنهم إذا وهبوا القليل اتبعوا ذلك بالمن الخانق فيقول^(٣):

وردتُ بها في الشام ماء معاشرٍ	نـاهم على وسعٍ من المال ضيق
مكارمهم وعدٌ ولا خير خلفها	وودهم المصنوع منهم تملق
تمخض لي بالوعد عاماً أكفهم	وخلفتها خلفي به وهي تطلق
يمنون إن متوا، ومنوا بنزره	ولا خير في طوق من التبر يخنق

وعندما ورد العماد الأصفهاني إلى دمشق، لم يحسن أهلها استقباله، فرفع قصيدة لنور الدين يتذمر فيها من أهل المدينة، وكيف أنه أقام فيها شهوراً، لم يجد

(١) ابن منير، ديوانه، ص ١٦٧.

(٢) أبو المواهب المعري: هو عبد المحسن بن صدقة بن عبدالله بن حديد من شعراء المعرة، قدم إلى دمشق، ولد سنة ٤٤٨ هـ ومات باليمن قتلاً سنة ٥٠٣ هـ، الأصفهاني، خريدة

القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، ج ٢، ص ١١٨ - ١١٩

(٣) المرجع نفسه، قسم شعراء الشام، ج ٢، ص ١١٢ - ١١٣.

فيها صديقاً يحسن إليه، أو حاكماً يبرّ به، واصفاً قلوبهم بالصخر، متذمراً من
وجوهم العابسة وأيديهم المغلولة إلى أعناقهم، ومن ذلك يقول^(١)

وببغدادَ قيلَ إن دِمَشَقاً ما بها للرجا سِواكَ مُجِيرُ
ما يَري نَاطِرُ نَظِيرِكَ فيها فَيَ رَوْضُ بما تَجودُ نَضيِرُ
وَمِنَ النَّائِبَاتِ أَنّي مُقِيمٌ بِدِمَشَقٍ وَلِلْمَقَامِ شُهُورُ
لا خَيلُ يَقولُ هَذا نَزِيلُ لا أَمِيرُ يَقولُ هَذا سَمِيرُ
لَسْتُ أَلقى سِوى وَجوهٍ وَأيدٍ وَقُلُوبٍ كَأَنَّهُنَّ صَخُورُ

ومن البلدان الشاميّة الأخرى التي تعرضت للقذح والهجاء: بعلبك، فحين هجا
الشاغوري الضياء بن فارس وزير الملك الأمد صاحب بعلبك صبّ غضبه على
المدينة نفسها، فرسم صورة شائهة ووسم أهلها بالجهل وسخر من حاكمها الضياء
الذي جلب لها الخراب والدمار، حيث يقول^(٢):

لا سَقَى الله بَعْلَكَ مُلِثُ الهِـوَاطِـلِ^(٣)
بَلَدَةٌ لَمْ تُعَدَّ فِي المُنَدَن بل في المَزَابِلِ
إِنهـا شَرُّ بَلَدَةٍ شُحِنَت بِـالأَرَاذِلِ
أَهْلُها لَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ قُسٍّ وَبِاقِلِ
دُمِّرَت حِينَ دُبِّرَت بِالظُّلَامِ بَن رَاجِلِ^(٤)

لقد كثف الشاعر المعاني وحاول إبراز معائب بعلبك، وحصرها في ثلاث
صفات " مشحونة بالأراذل - أن أهلها لا يفرقون بين قس وباقل - وأن الله أهلكها
حين تولّاها المهجو..... "، ومن هنا شعر فتیان الشاغوري بأن هذه المدينة صارت
شر بلدةٍ ولا تصلح الإقامة فيها.

(١) الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، بداية قسم شعراء الشام، ص ٤١.

(٢) الشاغوري، ديوانه، ص ٣٦١.

(٣) الملت: هو المطر الذي يدوم أياماً.

(٤) ظاهر ما قصد الشاعر من قلب اسم المهجو، فالضياء أصبح ظلاماً والفارس صار راجلاً.

ومن البلدان الشامية التي تعرضت للهجاء الشاغور^(١) والزبداني^(٢)، فقد هجا
فتيان الشاغور مركزاً على صفة اللصوصية التي يتصف بها أهلها، مبيناً أن مأكلم
حرام، واصفاً مهاراتهم وخفت أيديهم في السرقة، وكيف أنهم عدواً ذلك من
مفاخرهم، فيقول^(٣):

وَبَيْنَ نُهَيْرِي الشَّاغُورِ قَوْمٌ يَرُونَ الْفَخْرَ كَوْنُهُمْ لُصُوصًا
وَمَا طَبَخَتْ قُدُورُهُمْ حَلَالًا فَلَيْتَهُمْ بِهَا طَبَخُوا مَصُوصًا^(٤)
وَلَوْ أَنَا نَصَافِحُ خَيْرِيهِمْ لَسَلَّوْا مِنْ خَوَاتِمِنَا الْفُصُوصًا

فالشاعر هنا يرى بوضوح أهل شاغور، عندما الصق عليهم صفة
اللصوصية، ونرى براعة الشاعر في البيت الأخير عندما تساءل إذا كان هذه حال
خيريهم،،، فكيف يكون حال الآخرين منهم.

وقال يهجو أهل الزبداني :

أَرْقَنَا لَدَيْكُمْ مِيَاهَ الْوُجُوهِ وَاهْرَاقُ ذَاكَ مِنَ الْحُرِّ مَرًّا
وَبِالزَّبْدَانِي رَأَيْنَا الْخِلَاطَ خِلَاطًا وَكَمْ دُونَهَا بُكْتُمُرًا

وكان فتيان الشاغوري يستطرد من هجاء المدينة عامة وذم أهلها إلى هجاء
بعض البوتات فيها، كما في الأبيات التالية التي يسخر فيها من بني عسرون^(٥)
فقال^(٦):

عَلَى بَيْتِ عُسْرُونَ الْعَقَاءُ فَمَا لَهُمْ قَدِيمٌ وَلَا عِنْدَ الْفَخَارِ حَدِيثُ
إِذَا رَكَبَ الْقَوْمُ الْبِغَالَ أَوْ ابْتَدُوا فَمَا لَهُمْ فِي الْمَكْرُمَاتِ حَدِيثُ

(١) الشاغور: محلة مشهورة بالباب الصغير من دمشق، انظر: الحموي، معجم البلدان، ج ٣، ص ٣١٠.

(٢) الزبداني: كورة مشهورة بين دمشق وبلبك، ان: المرجع نفسه، ج ٣، ص ١٣٠.

(٣) الشاغوري، ديوانه، ص ٢٥٣.

(٤) المصوص: طعام من لحم يطبخ وينقع في الخل.

(٥) بني عسرون: أصلهم من الموصل ثم استقروا بدمشق وتولى بعضهم القضاء فيها وال
أحدهم تنسب مدرسة العسرونية وهو القاضي عبد الله بن أبي عسرون.

(٦) الشاغوري، ديوانه، ص ٧١.

بِغَالَا تَرَىٰ أُنَابَهَا كِلَاهُمُ فَتَضَرِّطُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَتَرُوتُ
وَمَالَهُمْ وَدُّ، بَلَىٰ إِنَّ كُلَّهُمْ يَعُوقُ عَنِ الْجَدْوَىٰ وَلَيْسَ يَغُوثُ
وامتد هذا الهجاء ليشمل مدناً أخرى، خارج حدود والشام، فقد هجا الحافظ
ابن عساكر^(١) مدينة نيسابور، وشكا شدة بردها، وقلة الأصدقاء فيها، فيقول^(٢):

لَا قَدَسَ اللَّهُ نَيْسَابُورَ مِنْ بَلَدٍ مَا فِيهِ مِنْ صَاحِبٍ يَسْلِي وَلَا سَكِنٍ
لَوْلَا الْجَحِيمُ الَّذِي فِي الْقَلْبِ مِنْ حَرِّ لِفَرْقَةِ الْأَهْلِ وَالْأَحْبَابِ وَالْوَطَنِ
لَمَتَ مِنْ شِدَّةِ الْبَرْدِ الَّذِي ظَهَرَ آثَارَ شِدَّتِهِ فِي ظَاهِرِ الْبَدَنِ
ففي هذه المدينة يسيطر اليأس والشؤم على وجدان الشاعر، ويعزو هذا الأمر إلى
الدهر الذي تمكن من تفريق الأهل والأحباب والوطن، لذلك غدت نيسابور المدينة التي
نفر منها الشاعر، فارتبطت بوجدانه لتشكّل بعداً سوداوياً، فلا أنيس فيها ولا صديق،
وتتحطم على جدرانها آماله بالخير والنعيم والألفة، لتزرع في نفسه الغربة والقلق والقهر
والاضطراب، وتتقطع حبال العلاقات الإنسانية وتتهاوى، لتغرس حبال الكراهية والغربة
مكانها، ولولا حرقه قلبه على فراق الأحبة لمات من البرد الذي ظهر أثره على جسده.
وهجا ابن عنين مدينة بخارى بقوله^(٣):

أَلَيْتُ لَا آتِي بُخَارَىٰ بَعْدَهَا وَلَوْ أَنَّهَا فِي الْأَرْضِ دَارُ خُلُودٍ
فَلَقَدْ حَلَلْتُ بِهَا حَنِيفاً مُسْلِماً وَرَحَلْتُ عَنْهَا بِاعْتِقَادٍ يَهُودِيٍّ
ولعل هجاء ابن عنين لهذه المدينة، كان بتأثير من غربته وأزمته النفسية التي
ولدّها نفيه من دولة صلاح الدين الأيوبي، بسبب كثرة هجائه لأرباب الدولة فيها، حتى لم
يسلم من هذا الهجاء صلاح الدين نفسه^(٤).

(١) هو علي بن الحافظ بن الحسن بن عساكر الحافظ الدمشقيّ، أحد أئمة الحديث المشهورين، من مصنفاته: تاريخ مدينة
دمشق، توفي سنة ٥٧١هـ. انظر: الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، ج ١، ص ٢٧٤.

الحمويّ، معجم الأدباء: ج ١٣، ص ٨٧.

(٢) الحموي، معجم الأدباء، ج ٤، ص ١٧٠٣.

(٣) ابن عنين، ديوانه، ص ٢١١.

(٤) سلطاننا أعرج وكاتبه
وصاحب الأمر خلقه شرس
وحاكم المسلمين ليس له
عيوب قوم لو أنها جمعت
ذو عمش والوزير منحدب
وعارض الجيش داؤه عجب
في غير غرمول أسود أرب
في فلك ما سرت به شهب

وتعرض الشعراء الشاميون - إلى جانب ذم المدن - لبعض أماكن السكنى والمرافق العامة، كالحمامات التي انتشرت في هذه الفترة انتشاراً واسعاً^(١)، وباتت من أبرز ما تميزت به الحضارة الإسلامية^(٢)، ووصف لمساوئ هذه الحمامات وافتقارها للنظافة، وهذا ما نلمسه من أبيات كمال الدين الأعمى عندما دخل نفسه حماماً ضيقاً، شديد الحرّ، ليس فيه ماء بارد، فقال يذمه ويصف من يدخله، مصوراً شدة حرارته، وإظلام نواحيه، وضيق بابه الذي يشبه طاقة سجن، وفظاظة القائم عليه، وسوء معاملته للناس^(٣):

إنّ حمامنا الذي نحن فيه	قد أناخ العذاب فيه وخيم
مظلم الأرض والسّما والنواحي	كلّ عيب من عيبه يتعلم
حرجُ بابه كطاقة سجن	قال لي اخس فيه ولا تتكلّم
وله مالك غدا خازن النّـا	شهد الله من يُجزّ فيه يندم
كلّما قلت قد أطلت عذابـي	ر، بلى مالك أرقّ وأرحم
قلت لمّا رأيته يتلظّـى:	ربنا اصرف عنا عذاب جهنم

ويرى الأسعديّ مجموعة من العيوب والمساوئ التي عاينها في أحد الحمامات التي دخلها، وهي عيوب تصور عدم اهتمام القائمين على الحمام بنظافته والعناية به^(٤)، ومن ذلك يقول^(٥):

رأيت لحمامكم ستّة يظلّ لها كلّ طلق عبوسا

(١) ابن جبير، رحلة ابن جبير: ٢٠٢.

(٢) عاشور، سعيد عبد الفتاح، المجتمع الإسلاميّ في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ١٩٧٤، ص ٢٢١.

(٣) الكتبي، فوات الوفيات، ج ٣، ص ٩١.

(٤) للاستزادة انظر: الرّقب، شفيق، شعر الهجاء في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد ٥٥، تموز - كانون الأول، ١٩٩٨، ص ٣٤.

(٥) ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، ج ٩، ص ٤٢٤٣.

هواء تجمد منه الرؤوس وماء يذيب الكلى والنفوسا
وسقف يدرّ كفيض الغمام وأرض تمنع عنها الجلوسا
وطين تغرغر منه الحلق "وعشواء تمنح" روحاً خسيساً^(١)
وواضح من هذا الوصف المسهب الذي أورده الشاعر بهذه الطريقة الهازئة،
سوء حال بعض هذه الحمامات التي كانت تفتقد إلى أدنى شروط الصحة العامة.
وقد زار جوبان القوَّاس حماماً، مخدوعاً بظاهره وما عليه من نقوش
وتصاوير، فما أن دخله حتى أخذت الروائح الكريهة تتصاعد منه، واكتنف الظلام
حجراته، وأخذ يسير فيه متلمساً طريقه كالأعمى فيقول^(٢):

جئت أريد الحمام يوماً فغرّني النقش والحصيرُ
حتى إذا جزت نلت ريحاً كأنما تتبشش القبورُ
أنقلُ خوف الوقوع رجلي فيها كما ينقل الضريرُ
وكلمّا جاء لها زبون قلنا: ألم يأتكم نذيرُ؟!
ونستطيع أن ندخل في هذا الإطار، ذم الشعراء لمنازلهم وأماكن سكناهم، إذ
من خلال هذا الشعر نتعرف إلى أحوال بعض الشعراء، وما كانوا يعانون من فقر
وبؤس حال. لذلك ارتبط هذا الهجاء بالشكوى والحزن من انعدام السكن والطمأنينة،
والتذمر من الفقر والحرمان، لدى عدد من الشعراء الذين كانوا ضحية لمثل هذه
الأوضاع الاجتماعية القاسية، فقد ذمّ كمال الدين بن الأعمى دار سكناه في قصيدة
مطلعها^(٣):

دارٌ سكنت بها أقلّ صفاتها أن تكثر الحشرات من حشراتِها
وقد اقترن هذا الهجاء في الغالب بالسخرية والتهكم، فصورّ الشاعر منزله
تصويراً ساخراً بيّن سوء أوضاعه الصحية، وخلّوّه من أبسط مستلزمات الحياة

(١) ورد ما بين علامتي التنصيص في بغية الطلب هكذا " وعشو يمنح " فلا يستقيم به الوزن والمعنى.

(٢) الكتبي، فوات الوفيات، ج ١، ص ٣٠٧.

(٣) المرجع نفسه، ج ٣، ص ٨٧.

الكريمة، فيفصل القول في هجاء منزله تفصيلاً، ويقلبه على غير وجه، في قصيدة طويلة، أطل في وصف الحشرات القاطنة فيه، وعبر عن آلامه ومعاناته من لدغ الحشرات، وأصواتها المزعجة، والروائح الكريهة التي تصدر عنها.

من بعض ما فيها البعوض، عدته	كم أعدم الأجفان طيب سناتها
وتبيت تسعدها براغيث متى	غنت لها رقصة على نغماتها
وبها ذباب كالضباب يسد عي	من الشمس، ما طربي سوى غناها
وبها خفافيش تطير نهارها	مع ليلها، ليست على عاداتها
وبها من الجرذان ما قد قصرت	عنه العتاق الجرذ في حملاتها
وبها خنافس كالطنافس أفرشت	في أرضها، وعلت على جنباتها
قد رمت من قبل أن يلقى لآ	دم أمنا حواء في عرفاتها
شاهدت مكتوباً على أرجائها	ورأيت مسطوراً على عتباتها
لا تقربوا منها وخافوها ولا	تلقوا بأيديكم إلى هلكاتها
كم بت فيها مفرداً والعين شو	قاً للصباح تسح من عبراتها
وأقول يا رب السموات العلى	يا رازقاً للوحش في فلواتها
أسكنتني بجهنم الدنيا ففي	أخراي هب لي الخلد في جناتها
وبها عقارب كالأقارب رتعا	فيها، حمانا الله لدغ حماتها
كيف السبيل إلى النجاة ولا نجا	ة ولا حياة لمن رأى حياتها
السم في نفثاتها، والمكر في	فلتاتها، والموت في لفتاتها
وبها قراد لا اندمال لجرحها	لا يفعل المشراط مثل أداتها
أبداً تمص دماءنا فكأنها	حجامة لبدت على كاساتها
واجمع بمن أهواه شملي عاجلاً	يا جامع الأرواح بعد شتاتها

ويمضي الشاعر في قصيدته على هذا النحو من تصوير الحشرات والزواحف التي تقيم في داره، ذاكراً ما كان يعج في أرض هذا المنزل من حشرات وحيوانات متعددة، بدت أشبه ما تكون بجيوش متطاحنة لا يهدأ لها بال، ناقلاً صوراً واقعية انتقى أغلبها من محيطه، فيرى العقارب التي ترتع في ساحاتها، واليوم التي

تعكف في جنباتها، ويصف قدم الدار التي استوطنتها الجن، وتصدّع جدرانها، وتهدم سقفها، حتى غدا " مفرداً " في هذه الدار التي وصفها بأنها " جهنم الدنيا ".

أن القصيدة بما فيها من معاناة وألم، فإنها تشف عن تضجر الشاعر من حياته، وافتقاده للملاذ الذي يطمئن إليه، والصديق الذي يأنس به، وهذا ما نراه جلياً، عندما قرن لدغ العقارب بإساءة الأقارب والأصدقاء إليه، داعياً الله أن يحميه من ذلك. وحينما يتحدث عن الأفاعي التي أقامت في الدار، فنراه قد استعار صفات لا تكون إلا في البشر، وعندما أنهى الشاعر قصيدته سأل الله - تعالى - أن يجمع شمله بمن يهواه، ويجد السكينة في جواره، ويؤنس وحدته.

ولم يقف الشعراء الشاميون في هجاءهم للمدن عند حدود ذمها وأهلها ومنازلها ومرافقها العامة، بل امتد أيضاً ليشمل بعض مظاهر الفساد الاجتماعي، والتتديد بها، وتصوير معاناة الناس منها، ودعوة أولي الأمر إلى إزالتها والقضاء عليها. وقد تعددت مظاهر النقد الاجتماعي آنذاك، فشملت الحكم والإدارة، والقضاء، والفقهاء، والمتصوفة، وسدنة المساجد، وغيره ذلك.

وقد شاع الشعر الذي انتقد أجهزة الحكم والإدارة، وكان هذا النقد يوجه إلى الحكام مباشرة، بحيث يبين الشعراء فيه مواضع الخلل والفساد، فعلى الرغم من المعاهدات التي أبرمت بين نور الدين وحكام دمشق، فإنه ظلّ متوجساً منهم، وغير واثق بهم، لما عرفه عنهم من نقض العهد، وممالأة الأعداء، ومع ذلك كان مشفقاً من مقاتلتهم، حقناً لدماء المسلمين، " فإن الدم كان عنده عظيماً، لما كان قد جبل عليه من الرأفة والرحمة والعدل.. " ^(١). لذلك عمد نور الدين إلى الحيلة فراسل عطاء السلمي ^(٢) أحد أمراء المدينة ليعينه على امتلاكها، وقد سجل ابن منير

(١) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم محمد، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق:

عبد القادر طليمات، دار الكتب الحديثة ومكتبة المتن، القاهرة، وبغداد، ١٩٦٣، ص ١٩٠.

(٢) أحد أمراء دمشق، وقد تغلب عليها بأمر مجير الدين، وكان ظالماً غشوماً توفي سنة

٥٤٩هـ، انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٢٤٩.

الطرابلسي ذلك في مقطوعة استهلها بأبيات سخر فيها من حكام دمشق، وأسف على فساد أحوالها، واضطراب أمورها فيقول^(١):

دَمَشَقٌ فِي "دَمَشَق" رَجَالٌ سَلِمَ لِحُورِ نِسَائِهِمْ مِنْهُمْ نِسَاءٌ
جَنَانٌ تُعْرِفُ الْجَنَّاتَ فِيهَا وَلَا رَأْيَ هُنَاكَ وَلَا رُوءَا^(٢)

وعندما تفاقم ظلم السامري وزير الملك الصالح إسماعيل، أرسل الفقيه شمس الدين المقدسي إلى الملك الصالح قصيدة اصطنع فيها أسلوب الوعظ والنصح، شاكياً إليه فساد حاشيته وسوء صنيعهم، وسماهم له واحداً واحداً، آخذاً عليه اعتماده على مثل هؤلاء المفسدين، ولاسيما على ثعلب وفضيل المنجمين اللذين أكثر الملك الصالح من استشارتهما فيقول^(٣):

يا مالكا لم أجد من نصيحتته	بدأ، وفيها دمي أخشاه منسفا
اسمع نصيحة من أوليته نعماً	يخاف كفرانها إن كف أو تركا
والله لا امتد ملك مد مالكة	على رعيته من ظلمه شبكا
تري الحسود به مستبشرا فرحاً	مستغرباً من بوادي أمره ضحكا
وزيره ابن غزال والرفيع له	قاضي القضاة ووالي حربته ابن بكا
وثعلب وفضيل من هما، وهما	أهل المشورة فيما ضاق أو ضنكا
جماعة بهم الآفات قد نشرت	والشرع قد مات والإسلام قد هلكا
ما راقبوا الله في سرّ وفي علن	وإنما يرقبون النجم والفلكا
إن كان خيراً ورزقاً واسعاً فلهم	أو كان شراً وأمرأ سيئاً فلكا

(١) ابن منير، ديوانه، ص ٢٦٠.

(٢) الرواء: المنظر الحسن، ودمشق في الشيء: بمعنى أسرع.

(٣) الكتبي، فوات الوفيات، ج ٣، ص ٣٥٨.

وتذمرّ فتيان الشاغوري عندما استوزر الملك الأمجد بهرام شاه مذهب الدين السامري^(١) إذ أكثر من استخدام أقاربه من اليهود السمرة، ف " كثر منهم العسف وأكل الأموال والفساد "^(٢) فيقول^(٣):

الملكُ الأمجدُ الذي شهدتُ له ملوكُ الزّمانِ بالفضْلِ
وأصبح في السامريّ معتقداً ما اعتقدَ السامريّ في العجلِ
والسامريون كالبرامك من قبلُ، فأين الرّشيدُ للقتلِ
وتعرض بعض الشعراء في نقدهم للحكام إلى أخلاقهم وسلوكهم، فقد هجا ابن دنينير ابن يعلى وزير الملك الظاهر بجلب في عدة مناسبات، ومن ذلك قوله يصفه باللؤم والجهل وضعف العزيمة والحمق وسوء الأخلاق^(٤):

ما إن سمعتُ ولا رأيتُ ولن أرى لوماً يماثل لؤم عبد الباقي
هو جاهلٌ واهي العزيمة أحقُّ صعبُ العريكة ضيقُ الأخلاق
فلو أن رجليه بخفة رأسه لغدا يفوت نواظر الأحداق
وقد صاغ بعض الشعراء نقدهم للحكام بأسلوب هزلي ساخر تتبدى فيه روح السخرية بقوة، ولعل أشهر أولئك الشاعر ابن عنين الذي ثابر على هجاء الحكام في عصره، ومن يقرأ هذا الهجاء يشعر أنه يعبر عن تجربة إنسانية عميقة فيها قدر طاع من حدة الإحساس وقوة الشعور. فعندما نفي ابن عنين من دمشق، استنكر ذلك، وهتف في وجه مقدمي الدولة قائلاً^(٥):

لو كنتُ أسودَ مثل الفيلِ هامته عبلَ الذراعين في غُرموله كبرُ

(١) من الأطباء المشهورين، استوزره الملك الأمجد وكثر من العسف والفساد، انظر: ابن أبي أصيبعة: أبو العباس أحمد بن قاسم، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت)، ص ٧٢١ - ٧٢٢.

(٢) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٧٢٢.

(٣) الشاغوري، ديوانه، ص ٣٥٩.

(٤) ابن دنينير، ديوانه، ص ٥١٦.

(٥) ابن عنين، ديوانه، ص ٢٣٦.

بنشد (۱):

وقد كثر الحديث عن هجاء القضاة في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، ونقدهم، مع أن عدداً منهم كان مشهوداً له بالعدل والنزاهة، فقد انتقد ابن دنيير القاضي حجة الدين الشهرزوري، وشهر به، ونعته بالجهل، والظلم والفسق والفجور ومن ذلك قوله^(٢):

معتزرف بالفسق، و الفجور

للسخرية، كما في قول أحد الظرفاء^(٤):

أَهْلَ دِمَشْقَ اسْتَرَابُوا مِنْ كَثْرَةِ الْحَكَامِ

(٤) المرجع نفسه، ٢٣٦.

وهم جميع شمسوس وحالهم في ظلام

وقول آخر:

أظلم الشّام وقد ولي الحكم شمسوس
ليس فيهم من بيت الحكم — علماً أو يسوس

وقد اتسعت دائرة النقد الاجتماعي في الشعر الشامي زمن الحروب الصليبية، فشملت المتصوفة الذين تكاثروا في المدن الشامية وأئمة المساجد والفقهاء، فقد سخر شهاب الدين بن غانم، وهو متصوف، من الفقهاء الذين يعتكفون في المساجد في رمضان، فيشبههم بالشياطين فيقول^(١):

ما اعتكاف الفقيه أخذاً بأجر بل لحكم قضى به رمضان
هو شهر تغلّ فيه الشياطين — ين، ولا شك أنه شيطان

بيد أن ابن عنين كان أكثر الشعراء جرأة في الحديث عن بعض العمال والمستخدمين، وخاصة في دولة الملك المعظم عيسى، فعندما أمر الملك بأن تسلسل أبواب الجامع الأموي بدمشق، التمس ابن عنين تعليلاً لذلك، ليطعن في أمانة سدنة المسجد الذين نهبوا أمواله فيقول^(٢):

لمّا رأى الجامع أمواله مأكولة ما بين نوابه
جنّ فمن خوف عليه غداً مسلسلاً من كل أبوابه

وبعد،،،،

وهكذا يتبين لنا من خلال عرض أنماط الهجاء والمدن الشامية عصر الحروب الصليبية أن الشعراء كانت علاقتهم بالمدينة تتراوح بين صور حزينة مليئة بعناصر التشويه، وبين الفكاهة والسخرية في صفات المدن وأهلها، ولمّا كان شعر الهجاء والنقد الاجتماعي يعبر عن موقف الشاعر الرافض لبعض الممارسات في عصره، فقد تولّد عن ذلك لغة تقوم على التقابل بشكل ترصد المفارقات وأوجه التضاد في السلوك الاجتماعي وتصوير لجوانب من الحياة اليومية في ديار الشّام زمن الحروب الصليبية.....

(١) الكتبي، فوات الوفيات، ج ١، ص ١٢٧.

(٢) ابن عنين، ديوانه، ص ١٤٣.

الفصل الثالث

رثاء المدن الإسلامية

١.٣ رثاء المدن الإسلامية

الرثاء موضوع دقيق، وهو ليس بظاهرة جديدة في الشعر، إذ شهد القرن السادس الهجري أنواعاً من المراثي، لعل أبرزها شيوعاً، التعزية أو التأبين - التعزية بالرجال المشهورين والتأبين لهم على جميع المستويات حكماً كانوا أو وزراء، فكان الشعراء آنذاك يمارسون قاعدة معينة تقول إن من استحق المدح فقد استحق الرثاء، وثمة نمط من الرثاء ظهر بسبب الحروب الصليبية، وهو رثاء المدن التي استولى عليها الفرنجة وعاثوا فيها فساداً، غير أن كمية ما نقل إلينا من هذا الشعر كانت قليلة قياساً بفداحة الأحداث وقوة المدّ الصليبي الذي أدى إلى بسط نفوذ الغزاة على مساحات واسعة من ديار الشام، ولعل السبب يعود إلى أن الشعراء يرون أن المدن على الرغم من سقوطها، فإنها لم تمت حتى تستدعي الرثاء - ولو حدث - يعني فقدان الأمل الكلي باسترجاعها.

لقد بنى الشعراء في العصور السابقة للمدينة صورة تكاد تكون موحدة، إذ إن بكاء الشاعر على وطنه ودياره، ليست بظاهرة مستحدثة، ف شعر ما قبل الإسلام، يشير إلى بكاء الشاعر على وطنه، (الأطلال والديار المقفرة الدارسة)، فقد " كانوا يعبرون عن جزعهم عند الديار والقبور ويدعون لها بالسقيا ويقفون بها، ويزورونها ويحيونها وكانوا يردون بلى الأطلال وآثارها إلى الدهر والزمان...." ^(١)، وكذلك فقد رثى الشعراء قبل الإسلام بعض الحواضر والمدن، بعد إن فجعهم الدهر بخرابها، لكن هذه القصائد لم ترق من الناحية الفنية إلى درجة توازي القصائد المدحية والهجائية، كما من الملاحظ أن الشعراء لم يفرّدوا قصائد خاصة برثاء المدن، إنما جاءت فكرة أو رؤية من مجموع الأفكار والرؤى في القصيدة، أي أنها لم تستقل بصورة خاصة، فقد وردت في قصائد ذات أغراض متعددة ^(٢).

(١) جياووك، مصطفى عبد اللطيف، الحياة والموت في الشعر الجاهلي، منشورات وزارة الأعلام، العراق، ١٩٧٧م، ص ١٤٥.

(٢) للاستزادة انظر: البكور، حسن فالح، المدينة في الشعر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة اليرموك، الأردن، ١٩٩٩م، ص ٢٣٣.

أما المدينة في العصر العباسي فقد " صارت تمثل كياناً له معنى ووجود في نفوس أهلها، وأن أهلها قد صاروا تربطهم بها روابط كثيرة، مادية ومعنوية وقد تولد في نفوسهم - نتيجة لذلك - شعور أنساني نبيل إزاء المدينة، عبروا عنه في صدق وحرارة، عندما رأوا الخراب والدمار يحل بها كأنهم فقدوا بها عزيزاً عليهم...." (١).

ولم يكن الشعراء في عصر الحروب الصليبية بمنأى عن هذا الإحساس الذي أحسّ به شعراء العصر العباسي، وهم يرثون بعض مدنهم، ولا سيما أن علاقة الإنسان بالمدينة توطدت آنذاك، فقد صور لنا العديد من الشعراء الشاميين المدن الإسلامية في ديار الشام، بعد سقوطها والاستيلاء عليها من قبل الصليبيين، فعندما هاجم الصليبيون المشرق الإسلامي في أواخر القرن الخامس الهجري، كانت بلاد الشام تعاني من الانقسام وتعصف الخلافات بين أمرائها، ممّا جعلهم عاجزين عن المقاومة، وكان المسلمون فيها منقسمين إلى شيع وطوائف، فلم يكن هناك سلطة توحدتهم وتقودهم لقتال الغزاة، وظهرت في الشام وغيرها إمارات مستقلة على رأس كل منها أمير، ممّا سهل الأمر على الصليبيين، فتمكنت الحملات الصليبية من تأسيس إمارات لها في المدن الشامية الإسلامية (٢)، فاستيقظ الشعر في دور مبكر للتحريض على رد العدوان، وتصوير ما أصاب المدن من تدمير وتخريب، وكانت الروح الدينية هي العامل القوي في توجيه ذلك الشعر إلى تلك الناحية، إذ تجلّى منذ البداية أن القائمين بالحملة الصليبية الأولى كانوا يرفعون شعار دين في مواجهة دين آخر سواء أكان ذلك مترجماً لمشاعر صحيحة أو شعار زيف ودعوى....." (٣).

١.١.٣ رثاء بيت المقدس وديار الشام عامة سنة ٤٩٢ هـ :

ترتّب على الأحداث التي تعاقبت على المدن الإسلامية المحتلة، أن حضرت في الشعر الشامي زمن الحروب الصليبية حضوراً واضحاً، إذ صورّ الشعر الأحداث التي مرت بها، والأجواء التي سادت فيها، ابتداءً من احتلالها وانتهاءً بتحريرها، ومن

(١) إسماعيل، عز الدين، في الأدب العباسي الرؤية والفن، دار النهضة العربية للطباعة، بيروت، ١٩٧٥، ص ٣٦٦.

(٢) انظر: التمهيد من هذه الرسالة، ص ١.

(٣) الرّقب، الشعر العربي في بلاد الشام، ص ٥٤.

أوائل الأشعار التي قيلت في رثاء بلاد الشام عامة وبيت المقدس خاصة، القصيدة المنسوبة إلى أبي المظفر الأبيوردي^(١) أو (القاضي الهروي)^(٢)، إذ شكّل سقوط بيت المقدس نقلة نوعية في الصراع بين الصليبيين والمسلمين، وعزز أطماع الصليبيين للاستيلاء على المدن والقرى المجاورة لها، لاسيما أن المذابح التي اقترفت في بيت المقدس استتظقت ألسنتهم، فما أن وطئت أقدام الغزاة الأرض الإسلامية، حتى شرعوا يقتلون المسلمين، ويأسرونهم، ويسبون نساءهم وأطفالهم ويدمرون ما تصل إليه أيديهم من مظاهر الحضارة والعمران، وقد رصد لنا الشعر قصائد تعبر عن صورة القدس بعد الاحتلال، فقد ورد في كتاب النجوم الزاهرة النص التالي:

" ولما تمت هذه الحادثة يعني استيلاء الفرنجة على القدس عام ٤٩٢ هجري، خرج المستنفرون من دمشق مع قاضيها زين الدين أبي سعد الهروي، فوصلوا بغداد وحضروا في الديوان وقطّعوا شعورهم !!! وبكوا !!! وقام القاضي في الديوان وقال كلاماً أبكى الحاضرين، وندب من الديوان من يمضي، لى المعسكر السلطاني (جيش الخلافة) ويعرفهم بهذه المصيبة، فوقع التقاعد لأمر يريده الله فقال القاضي الهروي، وقيل لأبي المظفر الأبيوردي والقصيدة مطلعها^(٣):

مَزَجْنَا دِمَاءَ بِالذُّمُوعِ السَّوَاجِمِ فَلَمْ يَبْقَ مِنَّا عُرْضَةٌ لِلْمَرَامِ^(٤)
وَشَرُّ سِلَاحِ الْمَرءِ دَمْعٌ يُفِيضُهُ إِذَا الْحَرْبُ شُبَّتْ نَارُهَا بِالصَّوَارِمِ^(٥)

(١) الأغلب أنها للأبيوردي وأن القاضي الهروي قد تمثل بها، والأبيوردي هم محمد بن أحمد القرشي المتوفى بأصبهان عام ٥٥٧ هجري، الأبيوردي، ديوانه، تحقيق عمر الأسعد، طبعه مجمع اللغة العربية، دمشق، ج ٢، ص ١٥٦.

(٢) هو محمد بن نصر بن منصور، فقيه مشهور ولي القضاء في بلاد العجم وفي دمشق وبغداد، توفي عام ٥١٩، انظر: السبكي، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، (١٩٧٠)، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمود محمد الطناحي، عبد الفتاح محمد الحلو، ط ١، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٩٧٠، ج ٧، ص ٢٢.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٥، ص ١٥١.

(٤) العين السجوم: التي تصب وتسيل الدمع، والمراحم: جمع المرحمة وهي الرحمة.

(٥) الصوارم: جمع الصارم وهو السيف القاطع.

فقد استهل الشاعر قصيدته بأبيات قوية مؤثرة تضع القارئ في الجو العام للمأساة الدمية التي يحياها المسلمون في ديار الشام وتستثير وجدانه لمرأى الدموع الممثلة بالدم، حيث أن البكاء سلاح غير مجدٍ في خضم هذه الأحداث العنيفة. ويخلص الشاعر من هذا التفجع والبكاء إلى تصوير ضروب الفواجع التي حلت بالمدن الشامية، فيقول :

- فَإِيَّهَا بَنِي الْإِسْلَامِ إِنَّ وَرَاءَكُمْ وَقَائِعَ يُلْحِقْنَ الذُّرَى بِالْمَنَاسِمِ^(١)
أَتَهْوِيْمَةً فِي ظِلِّ أَمْنٍ وَغِيْطَةٍ وَعَيْشٍ كَنُورِ الْخَمِيْلَةِ نَاعِمٍ؟^(٢)
وَكَيْفَ تَتَامُ الْعَيْنُ مِلءَ جُفُونِهَا عَلَى هَفَوَاتٍ أَيْقَظَتْ كُلَّ نَائِمٍ^(٣)
وَإِخْوَانُكُمْ بِالشَّامِ يُضْحَى مَقِيلُهُمْ ظُهُورَ الْمَذَاكِي أَوْ بُطُونِ الْقَشَاعِمِ^(٤)
تَسُومُهُمُ الرُّومُ الْهَوَانَ وَأَنْتُمْ تَجْرُونَ ذَيْلَ الْخَفْضِ، فِعْلَ الْمُسَالِمِ^(٥)

فالأبيات تصوير عام لما دهم المدن الشامية المحتلة، وهي تدل على شعور حاد بالأخطار، وتنبه على النتائج المترتبة عليها، لذا فقد اتخذت طابع التنبيه والاستنهاض، فالشاعر يستصرخ المتقاعسين عن القتال مع أخوانهم المسلمين في بلاد الشام، فيوجه نداء حاراً لهم، أن يستيقظوا من سباتهم العميق، ويتعجب الشاعر كيف يمكن أن ينام هؤلاء ملء عيونهم ويعيشوا عيشاً آمناً، وغير بعيد عنهم تجري فظائع الأمور التي تقع على رؤوس إخوانهم من أهل الشام، فلا يجدون وقتاً قصيراً ينامون فيه في بيوتهم، فجلاً أوقاتهم على صهوات الخيول يحاربون أو تكتب لهم

(١) إيَّها: بمعنى زيدوا، الذرا: الأعالي، والمناسم: جمع المنسم للابل وهو كالظفر للإنسان أو هو خف البعير.

(٢) التهويمة: جولة الطائر أو النحلة أو ما شابه ذلك في الهواء، والخميلة: الشجر الكثيف الملتف.

(٣) الهفوات: هي السقطة أو الزلة.

(٤) المذاكي: جمع مذكي وهو الحصان الذي تمت سنة وكملت قوته، والقشاعم: جمع قشعم وهو النسر.

(٥) تسومهم: تغير عليهم وتلحق بهم الهوان.

الشهادة فتتخطفهم نسور الجو، فلا يوجد من يدفن جثثهم، وربما يقعون أسرى في أيدي أعدائهم الفرنجة.

ويصف الشاعر أحوال المسلمين في المدن المحتلة، مستثيراً حمية المسلمين لأعراضهم التي انتهكت آسياً للدماء المستباحة، مصوراً الهلع الذي انتاب الناس كباراً وصغاراً، وتصل الأبيات إلى أعلى درجات الاستثارة عندما صور الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقد همّه ما حلّ بالمسلمين فأخذ ينادي من قبره الطاهر بأعلى صوت ويحث المسلمين على الجهاد :

وَكَمْ مِنْ دِمَاءٍ قَدْ أُبِيحَتْ وَمِنْ دُمَى	تُورِي حَيَاءً حُسْنَهَا بِالْمَعَاصِمِ
بِحَيْثُ السُّيُوفِ الْبَيْضِ مُحْمَرَّةِ الظُّبَا	وَسُمُرُ الْعَوَالِي دَامِيَاتُ اللَّهَازِمِ ^(١)
وَبَيْنَ اخْتِلَاسِ الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ وَقَفَّةٌ	تَظَلُّ لَهَا الْوَلَدَانُ شَيْبَ الْقَوَادِمِ
وَتِلْكَ حُرُوبٌ مِنْ يَغِيبُ عَنْ غِمَارِهَا	لَيْسَلَمْ، يَقْرَعُ بَعْدَهَا سِنَّ نَادِمِ
سَلَّلْنَ بَايْدِي الْمَشْرُكِينَ قَوَاضِبَا	سَتُغْمَدُ مِنْهُمْ فِي الطُّلَا وَالْجَمَاجِمِ
يَكَادُ لَهُنَّ الْمُسْتَجِنُّ بَطْيِبَةً	يُنَادِي، بِأَعْلَى الصَّوْتِ، يَا آلَ هَاشِمِ ^(٢)

ويهيئ الشاعر بالمسلمين للنهوض ودفع العدوان، ويوجه النداءات إليهم لعلها توقظهم من همود الألف والعادة، وتحرك حميتهم للدفاع عن الإسلام، وذلك يقول:

أَرَى أُمَّتِي لَا يُشْرِعُونَ إِلَى الْعِدَا	رِمَاحَهُمْ وَالذِّينُ وَاهِي الدَّعَائِمِ
وَيَجْتَنِبُونَ النَّارَ خَوْفًا مِنَ الرَّدَى	وَلَا يَحْسُبُونَ الْعَارَ ضَرْبَةً لَازِمِ
أَتَرْضَى صَنَادِيدُ الْأَعَارِبِ بِالْأَذَى	وَيُغْضِي عَلَى ذُلِّ كُمَاةِ الْأَعَاجِمِ ^(٣)
فَلَيْتَهُمْ، إِذْ لَمْ يَذُودُوا حَمِيَّةً	عَنِ الدِّينِ، ضَنُّوا غَيْرَةً بِالْمَحَارِمِ
وَإِنْ زَهْدُوا فِي الْأَجْرِ إِذْ حَمَسَ الْوَعَى	فَهَلَّا أَتَوْهُ رَغْبَةً فِي الْمَغَانِمِ
لَئِنْ أَذْنَعْتَ تِلْكَ الْخِيَاشِمُ لِلْبَرَى	فَلَا عَطَسُوا إِلَّا بِأَجْدَعٍ رَاغِمِ ^(١)

(١) الظبا: حد السيف، سمر العوالي: الرماح، اللهازم: جمع لهزم وهو الحاد القاطع من الأسنة والسيوف.

(٢) طيبة: المدينة المنورة.

(٣) الصناديد: جمع صنديد وهو السيد الشجاع، والأعاريب: العرب.

ويستوفي الشاعر المزيد من الصور، فما هم قومه يتخاذلون عن الجهاد فيتألم لذلك
ألماً شديداً، كما يتعجب من شجعان المسلمين من عرب وعجم كيف يقبلون بهذا كله. وفي
نهاية القصيدة يبلغ الألم مبلغاً أشد فعلاً وتأثيراً، فيكشف لهم عن مستقبل أيامهم وما يلاقون
فيه من إذلال في أيام أبنائهم الوارثين للخنوع إن قبلوا باحتلال الأعداء لبلادهم، ثم
يهددهم بعار تسليم النساء للأعداء إن هم ظلوا على ما هم عليه من الخنوع والجبن
والقعود عن الجهاد، ومن ثم ذيل الشاعر أبياته ببيت ضمنه دعاءً شرطياً على هؤلاء
المتخاذلين، وهو دعاء لا يُحمل على معناه الظاهر، وإنما هو في حقيقته إنذار قائم
على التنبؤ بالمصير الذي ينتظرهم والأخطار التي ستحدق بهم.

وبعد ذلك تتجه القصيدة صوب النهاية، فيذيلها الشاعر بثلاثة أبيات جعلها
خاتمة لها، وذلك في قوله:

دَعَوْنَاكُمْ وَالْحَرْبُ تَرْنُو مُلْحَةً إِلَيْنَا بِالْحَاطِظِ النُّسُورِ الْقَشَاعِمِ
تُرَاقِبُ فِينَا غَارَةَ عَرَبِيَّةً تُطِيلُ عَلَيْهَا الرُّومُ عَضَّ الْأَبَاهِمِ
فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَغْضَبُوا بَعْدَ هَذِهِ رَمَيْنَا إِلَى أَعْدَائِنَا بِالْحَرَائِمِ

أنهى الشاعر قصيدته على نحو موجه، فالنساء المسلمات سيصبحن سبايا في
أيدي الأعداء إن تخاذل المسلمون عن الدفاع عنهن، ولعل الشاعر يصطنع في
البيتين الألفاظ الموحية بالقوة ليوهمنا بالقوة والعزم في النفوس المستكينة، إلا أن
وطأة الأحداث حدثت من هذه الروح القوية. والقصيدة في جملتها انفعالات وجدانية
متأججة، صادرة عن نفس متحرقة متحسرة، تدرك حقيقة الأخطار، وتدعو إلى
دفعها قبل تفاقمها، وقد صدرت عن لحظة شعورية واحدة أخضعتها لإحساس مهيم
واحد منذ مطلعها حتى نهايتها ويعزز ذلك من خلال المقابلة التصويرية التي أدت
دوراً مؤثراً في حركة المعنى، حيث ينتقل القارئ على نحو سريع من صورة تمثل
أحوال المتقاعسين إلى صورة أخرى مغايرة تصف أحوال المسلمين في المدن
المحتلة، وقد نوّع الشاعر في الأبيات السابقة من العناصر التحريضية تنويعاً يناسب

(١) البرى: جمع البرة وهي حلقة تجعل في أنف البعير أو الأسير، والأجدع: الذي قطع أنفه،
وراعم: أي الذليل.

أحوال المخاطبين، إذ اندفع على شكل نوبات انفعالية يتداخل بعضها في بعض مما أخرجها عن منطق الترتيب والتنسيق^(١).

وثمة أبيات أخرى تنسب إلى شاعر لم تذكر المصادر اسمه، استشعر فيها على نحو عميق المآسي التي حلت بمدن بلاد الشام، والعداء الذي يملأ قلوب الفرنجة على الإسلام وأهله، وسعيهم الدؤوب لتغيير معالم الحضارة الإسلامية في المدن التي يستولون عليها، فيقول^(٢):

أحلّ الكفرُ بالإسلام ضيماً	يطول عليه للدين النحيبُ
فحقّ ضائعٌ وحمىً مباحٌ	وسيفٌ قاطعٌ ودمٌ صبيبٌ
وكم من مسلمٍ أمسى سليباً	ومسلمةٍ لها حرم سليبٌ
وكم من مسجدٍ جعلوه ديراً	على محرابه نصبَ الصليبِ
دم الخنزير فيه لهم خلقٌ	وتحريق المصاحف فيه طيبٌ
أمور لو تأملهنّ طفلٌ	لطفل في عوارضه المشيبُ
أتسبى المسلماتُ بكل ثغرٍ	وعيشُ المسلمين، إذاً يطيبُ؟
أما لله والإسلام حق	يدافع عنه شبان وشيبُ؟
فقلّ لذوي البصائر، حيث كانوا:	أجيبوا الله، ويحكم، أجيبوا

فالقصيدة من الأدب الحزين الباكي التي ترسم بوضوح ضروب الفواجع والمآسي التي تعرضت لها مدن الشام عامة وبيت المقدس خاصة عشية الغزو الصليبي، وقد استشعر قائلها المخاطر التي يمثلها الفرنجة على ديار الإسلام، لذلك كثرت في القصيدة الألفاظ ذات الدلالات الدينية، التي تعبر عن حقيقة الصراع بين المسلمين والفرنجة، وقد أكثر الشاعر من اللوحات التصويرية ذات الدلالات المتضادة التي تعمل على تجسيد المفارقة بين الماضي والحاضر من خلال التشكيلات اللغوية التناظرية التي تتكئ على المتقابلات الحسية والمعنوية، مثل: "

(١) للاستزادة انظر: الرقب، صورة المدينة المحتلة في الشعر الشامي زمن الحروب الصليبية،

(٢) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٥١.

الإسلام والكفر - المسجد والدير - والمحراب والصليب - ودم الخنزير وخلق -
تحريق المصاحف وطيب " ويعضد هذه الصور الصيغ الإنشائية وبنية التكرار
بأبعادها التأكيدية والإيقاعية.

وهنا نرى أن الشاعر يفصل في تصوير أجزاء المدينة، بمفردات تصور
التشويه الذي أصابها بعد استيلاء الفرنجة عليها، فقد تحولت المساجد فيها إلى أديرة
للنصارى، وارتفعت الصلبان فيها على محاريب تلك المساجد، كما انتشرت رائحة
الخنازير فيها، فأصبحت رائحة يتلذذ بتشممها النصارى، مع ما يحرقونه من
مصاحف في المساجد المستباحة، إلى غير ذلك من الأمور التي لو تأملها صبي
لشاب شعر رأسه لفضاعتها وشدة وقعها.

هكذا ركز الشعراء في بداية الغزو الصليبي لبلاد الشام على تبصير المسلمين
بواقعهم، فعمدوا إلى إثارة شتى الانفعالات والاستثارات الوجدانية في نفوسهم عن
طريق طرح القضايا التي تمس العقيدة المسلم وكرامته. ومن الجدير بالذكر بأن
النموذجين السابقين صورة حزينة للكارثة وتنبية وتحذير للمسلمين ودعوة لهم
للوقوف في وجه العدوان الطاعي.

٢٠١.٣ رثاء المعرة:

ومن المدن التي رثاها الشعراء مدينة المعرة، فقد وقف العميد أبو البشر بن
الحواري على داره في المعرة بعد هجوم الفرنجة عليها، فقال^(١):

أهذه بين إنكاري وعرفاني	مساربُ الوحش أم داري وأوطاني
جهلتها ولقد أبدت ملاعبها	عهدَ الصبّا بين أخواني وخلّاني
فَعُجْتُ أسألها والدَّمَعُ منسكبٌ	والقلبُ في لوعةٍ من وجده عانٍ
يا دارُ مالي أرى الأيام قد حكمتْ	فيناً وفيك بحكم الجائر الجاني
فلو أجابت لقلت هكذا فعلت	قَدَمًا بجيرة نَعْمَانٍ ونُعْمَانِ
وفي مدائن نوشروان مُعْتَبَرٌ	للسائلين وفي سيفٍ وغمدانٍ

(١) الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، ج ٢، ص ٨٧.

فاذهب لشأنك فالدنيا لها دول تمضي وتأتي وكلُّ بينها فان
لقد أوضحت الأبيات أنها صادرة عن لحظة تأملية تراءت فيها المعرة
(مجسّدة في داره) في صورة (طلل)، غير أنّ الشاعر لم يكن مأخوذاً برسم التفاصيل
الحسيّة لهذا المشهد، وإنما كان معنياً بالتعبير عن انفعالاته وقد وجد نفسه أمام فناء
شمل الإنسان والعمران معاً، ويقوم المسلك التعبيري في البيتين الأول والثاني على
حوار داخليّ تشي به همزة الاستفهام والتي تحولت من معناها الحقيقي لتدل على
الإنكار والتكذيب الرافض لما يعاينه الشاعر، لكن هذا التكذيب سرعان ما يتلاشى في
الأبيات التالية، لذلك فقد صار الحوار بين الشاعر والديار التي أصابها الخراب،
وهنا يتسع الإحساس بالتحول السلبي في حركة الزمن (الجائر الجاني)، فيذكر
الشاعر بأسلوب تقريرى بعض مظاهر العظمة الزائلة، لا على سبيل التأسّي
وحسب، وإنما ليشير إلى أنّ ما حلّ بالمعرة هو سلسلة الهدم التي يمارسها الزمن
على الحضارة الإنسانية.

وقد أقام الشاعر مقابلة واضحة بينه وبين الديار المهذّمة، فربطها، بماضي
عمره (عهد الصبا) ليدلّ على أنّ الفناء شمل جزءاً من حياته، وقرن تأثير الأيام في
الديار بتأثيرها في نفسه والآخرين (حكمت فينا وفيك)، ولكنّ هذه المقابلة انتهت إلى
انفصال تتسحب فيه الديار إلى الفناء والتلاشي، ويمضي الشاعر إلى العمل والحياة
(فاذهب لشأنك) لتبدأ دورة أخرى من دورات الوجود الإنساني.

ونجد نظيراً للموقف السابق لدى شاعر آخر من شعراء المعرة هو أبو المجد
المعريّ الذي وقف على داره بعدد هجوم الفرنجة، فأحزنه مرآها وقد تبدلت
معالمها، وخلت من مظاهر الحياة، فيقول^(١):

وقفتُ بالدار وقد غيّرت	معالم منها وآثارُ
فقلتُ والقلبُ به لوعةٌ	تحرّقه والدمعُ مدرارُ
أين زمانٌ فيك قضيتُهُ	وأين سكانك يا دارُ

(١) الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، ج ٢، ص ١٠.

٣.١.٣ رثاء عسقلان:

ومن المدن التي رثاها الشعراء مدينة عسقلان، فعندما زارها عبدالله بن رواحة الحموي، ندبها في مقطوعة عبّر فيها عن أحزانه عليها، ومما عمق هذه الأحزان مرآي قبول الشهداء الذين ماتوا على أرضها، ومنظر المسلمين وهم يعانون المسكنة الذميمة فيها، وذلك إذ يقول^(١):

مررتُ بعسقلانٍ وقد رمتها يدُ الحدثان بالسهم المصيبِ
فأبكتني على الإسلام ديناً خلاف بكاء الحبيب على الحبيبِ
وكم في التراب فيها من شهيدٍ وكم في الأسر فيها من غريبِ

٤.١.٣ رثاء حوران

بعد مرحلة الهزائم يأخذ نجم عماد الدين زنكي بالبروغ، ويُصبح محوراً لما يلي من انتصارات وما يتصل بها من أشعار. وفي عهد نور الدين تتوالى الانتصارات، التي استطاع من خلالها استعادة كثيراً من المناطق الواقعة تحت سيطرة الفرنجة، فواكب الشعر تلك المعارك، إذ كانت الحركة الجهادية تغري الشعراء بالقول. ثم يتابع صلاح الدين مسيرة الجهاد، غير أنّ المنحنى الجهادي الصاعد قد أخذ بالهبوط بعد وفاة صلاح الدين، حيث استغل الفرنجة الصراع الذي استعر بين ورثته، فحاولوا إعادة فرض سيطرتهم على الأماكن التي استردها المسلمون، وهنا نجد شعر الرثاء يستيقظ مرة أخرى، ففي سنة ٦١٤هـ تعرضت حوران لاجتياح صليبيّ شامل، امتد من بلاد حوران إلى أقصى جنوب بلاد الشام،

(١) ابن المستوفي، شرف الدين أبو البركات المبارك بن أحمد الأربلي، تاريخ آربل، تحقيق:

سامي الصقار، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠، ج ١، ص ٤١٣.

كما أنه اجتياح لم تتحدث عنه المصادر^(١) ولا بن عقيل الزراعي قصيدة فريدة من نوعها يرثي بلاد حوران وهي تمضي على النحو التالي^(٢):

جارَ الزمانُ على سكان حوراننا لا كانَ دهرٌ قضى بالجورِ لا كانا
أخنى وخانَ وقد كان الوفيَّ لهم لا غرَوَ للدهرِ إنَّ أخنى وإنَّ خاناً
صاح الجلاءُ بهم صوتاً فما لبثوا أن جاوبوه جماعات ووحداً
فأصبحتُ دمناً تلك الربوعُ لهم وبُذلتُ بعدهم يوماً وغرباناً
ظننتُ أنَّ قراهمُ بعدما درستُ أطلالُ ميٍّ وأنِّي كنتُ غيلاناً
ذهلتُ من أسفٍ حينَ استقلَّ بهم حادي العبورِ كأنِّي كنتُ سكراناً
واخجلتني بعدهمُ إنَّ لم أمتُ كمداً مُذ أزمعوا للنوى رجلاً وركباناً
تفرَّقوا بالفلأ أيدي سباً فتوى نجعُ بمصرَ ونجعُ حلَّ حراناً
وما استقلَّوا إلى أن قلَّ صبرهمُ وكابدوا المحلَّ في الأوطان أحياناً
إنَّ الكريمَ إذا ما خاف في وطنٍ ضيماً تبدلَ بالأوطان أوطاناً
كانوا يجيرونَ من جورِ الزمانِ فقد أضحوا من الجورِ في الأمصار جيراناً
ليس الهودجُ أحداً على إبلٍ تلك الجنانُ حوتَ حوراً وولداناً
الطالعات بدوراً إنَّ سفرنَ لن والمائساتُ إذا أقبلنَّ أغصاناً
كانَ أظعانهمُ والآل يرفعُها سفائنُ أشرعتُ أو نخل بيساناً
قالوا الغرابُ دعا في الحي فاحتملوا وما رأيتُ سوى الأحمالِ غرباناً
لا تتدبوا الدار إنَّ أقوتُ ولا طلاً ولا أوارِيَّ أفراسٍ وأشطاناً
وخلَّ مئةً والخلصاء يندبُها غيلانها وذرُ [سعدى] وحساناً
وخلَّ رامةً يبكيها جريرو ودع نصيبَ يندبُ حياً حلَّ وداناً

(١) انظر ابن واصل، جمال الدين محمد، مفرج الكروب في أخبار ملوك أيوب، ج ٤، ص ٢٥٧، وانظر: أبو شامة، الذيل على الروضتين في أخبار الدولتين، دار الجيل، بيروت، ط ٢،

١٩٧٤، ص ١٠٢.

(٢) الزراعي، ديوانه، ص ٣٩.

دع المعاهد فالأعراب أجدر أن
واندب قصورَ قرى حورانَ حينَ خلتُ
خوتَ عروشُ بها كانت مرفعة
شلَّ الزمانُ يدَ المعروفِ بعدهمُ
كم بين بُصرى إلى الرمثا إلى طفسٍ
ولستُ أنسى حبالاً والسراة وما
وبعد هذا أتى ما لا مردَّ له
أسراً وقتلاً ونهباً حينَ أذكره
كم قريةٍ كان في أكنافها نفرٌ
شُمَّ الأنوفِ سراةً سادةً نجباً
من كلِّ أبلج وضَّاح الجبين إذا
يقول من مات منّا كان أسعدنا
ما ذات طوق على أهلك الحمى صدحتُ
أقصى الزمانُ لها إلفاً فهاج لها
كلاً ولا مُغزِلٍ يرعى لها رشاً
لها كناسٌ من الأرطى على نشزٍ
أناخ صرفُ المنايا فيه إذ غفلت
فاغتالها وقضاءُ الله ليس له
لها بُغامٌ شديد حينَ تذكره
يوماً بأوجع مني إذ وقفتُ على
ترى يعودُ إلى الأوطان ساكنها
صبراً على الدهر إن أبكى العيونَ وإن
لابدَّ في الدهر من عُسرٍ وميسرةٍ

تبكي النقا ورُبى نجدٍ ونعمانا
وعوّضتُ بعدَ سُكنى الإنسانِ جنّانا
مجداً، وجفّت غروس كنّ صنوانا
وهدّ من جبل العلياء أركاننا
من الخراب إلى ما حول نجرانا
أصاب ماب إلى ما حول عمّانا
من الفرنج إلى غوري بيساننا
يهيج تذكاره للقلب أحزاننا
يمشون نحو العلى شيباً وشباننا
في السّلم والحرب أجوداً وشجعانا
بلوتهُ كان مطعاماً ومطعاننا
وكلّ من عاش منّا كان أشقاننا
ترجّع النّوح في الأفنان ألحانا
فراقه والنوى همّاً وأشجاننا
بيطن وجرة رخص الظلف أدمانا
في روضةٍ أنبتت رنداً وحوذانا
سممعاً أهّرت الشدقين غرثانا
ردّ، ولا ردّ للمقضيّ إن حاننا
إذا رأت عينها في السرب غزلانا
تلك القرى وتذكرتُ الذي كاننا
فأنظر الدّارس الآياتِ عمراننا
أنكى القلوبَ وإنْ أخنى وإنْ خاننا
وأن ترى فيهما سوءاً وإحساننا

القصيدة من الناحية الفنية تعد إضافة جديدة إلى شعر الرثاء البلداناني، الذي قيل زمن الحروب الصليبية، وقد استهل الشاعر قصيدته بمطلع صور فيه انقلاب أحوالها وجور الزمان على أهل حوران، لذلك أكثر من استخدام الدوال المفردة التي تتصل بالتبدل والتغير مثل (الجلاء، الدّمن، الغربان، الأطلال، النوى، القتل، النهب، درست.....).

ويصف الشاعر في قصيدته الهلع الذي أصاب به النفوس من الفرنجة، وترصدتهم الناس، مما اضطرهم إلى ترك ديارهم بحثاً عن الملاذ الآمن:

صاح الجلاء بهم صوتاً فما لبثوا أن جاوبوه جماعات ووحداً

تفرقوا بالفلأ أيدي سباً فتوى نجع بمصر، ونجع حلّ حرّانا

وما استقوا إلى أن قلّ صبرهم وكابدوا المحل في الأوطان أحياناً

وحين يتحدث ابن عقيل عن المساحة الواسعة التي شملها الاجتياح الصليبي، وهدم معالم العمران البشري فيها، يذكر أسماء العديد من المواضع الشامية في حوران وغيرها بلغة سردية تقريرية وصفية:

واندب قصور قرى حوران حين خلت وعوّضت بعد سكنى الإنس جنّانا

خوت عروش بها كانت مرفعةً مجداً، وجفت عروس كنّ صنوانا

كم بين بصرى^(١) إلى الرمثا^(٢) إلى طفس^(٣) من الخراب إلى ما حول نجران^(٤)

ولست أنسى حبلاً^(١) والسراة^(٢) وما أصاب ماب^(٣) إلى ما حول عمّانا

(١) بصرى: تقع في جنوبي حوران إلى الشرق من درعا، ياقوت الحموي، معجم البلدان، (بصرى).

(٢) الرمثا: مدين تقع شمال الأردن على الحدود السورية. بيركهارت، لودفش، رحلات بيركهارت، ترجمة أنور عرفات، عمان، وزارة الثقافة، ١٩٩٦م، ص ١٤.

(٣) طفس: قرية تقع اليوم قرب درعا جنوبي سوريا.

(٤) نجران: قرية إلى الشمال الغربي من السويداء في سوريا، الحموي، معجم البلدان، (نجران).

وبعد هذا أتى ما لا مردَّ لـه من الفرنج إلى غوري بيساننا
ويتسع الإيقاع التدميري في القصيدة ليشمل الإنسان المسلم والقيم التي يمثلها كما
في قوله :

أسراً وقتلاً ونهباً حين أذكره يهيجُ تذكّره للقلب أحزانا
كم قريةٍ كان في أكنافها نفرٌ يمشون نحو العلا شيباً وشباناً
شمّ الأنوف سراً سادةً نُجُباً في السّلم والحرب أجوداً وشجعانا
يقول من مات منا كان أسعدنا وكلّ من عاش منا كان أشقانا
وينهى قصيدته بلوحة يرى المدقّق فيها ظبيةً انساحت في الأرض تطلب الكلاً
تاركة صغيرها وراءها، فقيض لها القدر ذنباً اغتاله ومزّق لحمه، يقول :

ما ذات طوق على أيك الحمى صدحتُ ترجعُ النّوح في الأفنان ألحانا
أقصى الزمان لها إلفاً فهاج لها فراقه والنّوى همّاً وأشجانا
كلّاً ولا مُغزل يرعى لها رشاً ببطنٍ وجرة رخص الظلف أمانا
لها كناسٌ من الأرطى على نشزٍ في روضةٍ أنبتت رنّداً وحوّذانا
أتاح صرف المنايا فيه إذ غفلتُ سمّمعاً أهرت الشدقين غرثانا
٥.١.٣ رثاء بيت المقدس سنة ٦١٦هـ:

يتطلع الفرنجة إلى بيت المقدس مرة أخرى، ويسعون إلى احتلاله من جديد،
فيقدم المعظم عيسى على هدم أسوارها سنة ٦١٦هـ، لكي يتسلمها الفرنجة إذا هم قرروا

-
- (١) حبال: من قرى وادي موسى في الأردن، البغدادي، صفي الدين عبد المؤمن ابن عبد الحق،
مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، لندن، مطبعة بيريل، ١٨٥٢، ج١، ص ٢٨٣.
- (٢) السراة: سلسلة جبلية إلى الجنوب من البحر الميت. المرجع نفسه، ج٢، ص ١٠٠.
- (٣) ماب: مآب ومؤاب: مدينة في جنوب الأردن، الحموي، معجم البلدان، (مآب)،
وانظر: البغدادي، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ج٣، ص ٢٥.

ذلك وهي خراب لا ينتفعون بها كثيراً^(١)، توفي المعظم سنة ٦٢٤هـ ليتفرد أخوه الكامل في تدبير شؤون بني أيوب، وفي عهده زار فردريك الثاني (الأنبرور) القدس سنة ٦٢٦هـ، وأخذها سلماً بعد مفاوضات وافق فيها الكامل على أن تسلم المدينة دون سور^(٢)، وقد كان لهذين الحدثين ردود فعل شعبية أوضحتها المصادر^(٣)، كما كان لها أصداء في الشعر عامة، حيث شارك في رثاء المدينة شعراء من أقطار مختلفة^(٤).

ولم يقتصر الأمر على شاعر واحد في رثاء بيت المقدس، فها نحن نرى محمد بن المبارك القرقيسائي الخطيب الذي شخّص صورة القدس وجعل أجزاءها تتحدث بنفسها، وتأسى لما أصابها وتنتقل للمتلقى وقع الأحداث عليها، حيث يقول^(٥):

مصائبُ القدس قد سلبَ الرمادا	وقد لبس الخطيبُ به حدادا
وقاضيه قضى نجباً وإن لم	يمتْ لخراب ما أعلى وشادا
ونادى المسجد الأقصى أيرضى	بهذا الفعل من فرض الجهادا
ومنبره الشريف يئنّ خوفاً	ومماً حلّ بالمحاراب مادا
ولا ترقى لصخرته دموعٌ	فكم قد أقرحت أسفاً فؤدا
ولازم بابَ رحمته عذابٌ	وسحّ الطّورُ أدمعه وجادا
وأصبحت المدارسُ معلولاتٍ	تريق محابِرُ الفتيا المدادا
وبيتُ خليله وجلُّ لما قد	أصابَ سواه يرتعدُ ارتعادا

يصف الشاعر هنا الأجواء المأساوية التي سيطرت على مدينة القدس، من خلال رسم المشاهد الحية الملتقطة من واقع الحدث، والصورة التي يرسمها الشاعر لبيت

(١) أبو شامة، الذيل على الروضتين في أخبار الدولتين، ص ١١٥-١١٦، وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص ٣٢٠-٣٢٧، وانظر: الحنبلي، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٣٠٥.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص ٣٢٩، وانظر: الحنبلي، شفاء القلوب، ص ٣٠٦.

(٣) انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٢٤١-٢٤٢، وانظر: الحنبلي، شفاء القلوب، ص ٣١١-٣١٣.

(٤) عبدالمهدي، عبدالجليل، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، عمّان، دار البشير، ١٩٨٩، ص ١٧٨-٢٠٤.

(٥) المرجع نفسه، ص ٢٣١.

المقدس صورة دينية مغلفة بمشاعر حزينة ترمي إلى تصوير التشويه الذي أصاب معالمها، والخراب الذي أصاب مقدساتها ومعاهدها والربع الذي دبّ في البلدان المجاورة لها، حتى غدت ترتعد ارتعاداً.

ويرى شفيق الرقب بأن الشاعر في هذه القصيدة قد استعان " بوسيلتين للتأثير في المتلقي، الأولى : استثمار الخصائص الدينية للمكان، والاستكثار من الدوال المكانية التي تستوعب مظاهر القداسة فيها (المسجد الأقصى - المنبر - المحراب - الصخرة ...) والثانية : استخدام الدوال الاشتقاقية التي تضيف على المكان ظلال الحزن والكآبة، وتنزع عنه صفة الجمود، وتجعله يحكي معاناته ويصفها بنفسه (نادى - يئن - ترقى - يرتعد).^(١)

وعند قمامة اليوم التهاني تنته ككاعب جاءت تهادي
إذا سمعت بدمياط وما قد أشيع تقول بلّغت المراد
ولكن الكنائس ضاحكات تعالى الله يفعل ما أراد
وأهـى الشاعر قصيدته بتساؤل مفعم بالألم والحسرة، أردفه بيت أكد حالة الانكسار التي سرت في النص:

أبعد خراب بيت المقدس خبب أشدّ ولو توسّدنا القتادا
على الدنيا وما فيها عفء ولو نلنا بها السبع الشدادا
وعندما تنازل الملك الكامل عن القدس للفرنجة^(٢)، وقال ابن المجاور^(٣) قصيدة يرثي فيها الشاعر هذه المدينة، فقد نشر الشاعر في مستهل قصيدته جواً من الحزن وشكلاً

(١) للاستزادة انظر: الرقب، صورة المدينة المحتلة في الشعر الشامي زمن الحروب الصليبية، ص ٤٨.
(٢) كيفية التنازل: قدم الإمبراطور إلى عكا سنة ٦٢٥هـ، ومعه جموع كثيرة من الألمان والفرنج، وكتب إلى الملك الكامل يطلب منه أن يسلمه القدس وجميع ما فتحه صلاح الدين، فراسله الكامل ولاطفه، وترددت الرسل بين الكامل وفرديك وانتهى الأمر بينهما أن يسلم إليه القدس على شريطة أن يبقى خراباً، ولا يحدد سورته، وأن لا يكون للفرنج شيء من ظاهره التبه، بل يكون جميع قراياه للمسلمين، وللمسلمين وال عليها يكون مقامه بالبيرة من عمل القدس إلى شماليه، وأن الحرم الشريف بما احتواه من الصخرة المقدسة والمسجد الأقصى يكون بأيدي المسلمين، وقد تسلمه الفرنج في أول ربيع الآخر من سنة ٦٢٦هـ، وكان ذلك في الوقت الذي كان فيه الناصر داود محصوراً في دمشق، يحاصره عمه الملك الأشرف. انظر: الحنبلي، شذرات الذهب، ج ٥، ص ١١٨؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ١٣٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص ٤٨٢-٤٨٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٢٣-١٢٤.

لغته تشكيلاً بكائياً خالصاً صائغاً ذلك في أساليب إنشائية تفصح عن مشاعره وحالته النفسية، وتتضمن في ذاتها النبذة الانفعالية التي توضح المعنى المراد فيقول^(٢):

أعيني لا ترقى من العبراتِ صلي في البكا الأصال بالبكراتِ
لعل سبول الدمع يطفئ فيضها توقد ما في القلب من جمراتِ
ويا فم ببح بالشجر منك لعله يروح ما ألقى من الكرباتِ

واستثارة لمشاعر المسلمين فقد أسهم الشاعر في الحديث عن فضائل هذه المدينة ومكانتها في العقيدة الإسلامية ومال إلى الاستقصاء والوقوف عند الجزيئات واستخدام العبارات التقريرية المعززة بالمنبهات الأسلوبية، فبدت الأبيات ضرباً من الحديث العاطفي المباشر والترداد الحزين لمآثر هذه المدينة:

على المسجد الأقصى الذي جلد قدره على موطن الإخبات والصلوات
على منزل الأملاك والوحي والهدى على مشهد الأبدال والبدلات
على سلم المعراج والصخرة التي أنافت بما في الأرض من صخرات
على القبلة الأولى التي اتجهت لها صلاة البرايا في اختلاف جهات
على خير معمر وأكرم عامر وأشرف مبني لخير بُناة
ويصف الشاعر خراب المدينة بعد استيلاء الفرنجة عليها، وكيف أن الشعائر الإسلامية قد غطلت فيها وخلت المدينة من أهلها، يقول:

عفا المسجد الأقصى المبارك حوله الـ رقيق العماد العالي الشرفات
عفا بعدما قد كان للخير موسماً وللبر والإحسان والقربات
خلا من صلاة لا يمل مقيمها توشح بالآيات والسورات

(١) ابن المجاور، هو ابن أخت الوزير نجم الدين بن المجاور، وذكر أنه كان في خدمة خاله نجم الدين بالقاهرة، وذكر أنه خرج إلى بوصير في خدمته، وكان قد مضى إليها متنزهاً، وروى ابن ظافر الأزدي أنه كان ويعقوب بن المجاور في الإسكندرية، أيام حلول الملك العزيز بها، وروى ابن ظافر جزءاً من أشعاره، كما روى ابن المستوفي قليلاً منها. انظر: ابن المستوفي، تاريخ آربل، ج ١، ص ٣٣٥-٣٣٦.

(٢) انظر: عبدالمهدي، بيت المقدس في شعر الحروب الصليبية، ص ٢٤٠.

خلا من حنين التائبين وحزنهم فمن بين نواح وبين بكاء
ويقرن الشاعر بيت المقدس بالأماكن المقدسة في الديار الحجازية، ويختها على
البكاء على ما حلّ بأختها القدس، مستخدماً أساليب فنية بالغة التأثير، كالاتكاء على جملة
مركزية صدر بها أبياته (لتبك):

لَتَبْكِ عَلَى الْقُدْسِ الْبَلَادُ بِأَسْرَهَا وَتُعلنُ بِالْأَحْزَانِ وَالتَّرَحَاتِ
لَتَبْكِ عَلَيْهَا مَكَّةُ فَهِيَ أَخْتُهَا وَتَشْكُو الَّذِي لَاقَتْ إِلَى عَرَفَاتِ
لَتَبْكِ عَلَى مَا حَلَّ بِالْقُدْسِ طَيِّبَةً وَتَشْرَحُهُ فِي أَكْرَمِ الْحُجَرَاتِ
وينهي ابن المجاور قصيدته بالبكاء، وهنا يستعير بيتاً من دعل الخزاعي في رثاء آل
البيت، ويدمجه في القصيدة فيقول :

فَمَنْ لِي بِنَوَاحٍ يَنْحُنْ عَلَى الَّذِي شَجَانِي بِأَصْوَاتٍ لَهْنٍ شُجَاةٍ
يُرَدِّدْنَ بَيْتاً لِلْخَزَاعِيِّ قَالَهُ يُؤَبِّنُ فِيهِ خَيْرَةَ الْخَيْرَاتِ

٢.٣ الغزو المغولي:

ولم يكن الغزو الصليبيّ المحنة الوحيدة الذي واجهته أمتنا في تاريخها الطويل،
فقد تعرضت الأمة في أواسط القرن السابع الهجري لهجمة أخرى تمثلت في الغزو
المغولي، وكان للغزو المغولي أصداء في الشعر العربي، ولم يكن للصراع بين المسلمين
والمغول ساحة محددة المعالم، إلا أن الباحثين استطاعوا تحديد تلك الساحة بالنظر إلى
مراحلها، فمنذ انطلاقه سنة ٦١٧هـ إلى سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ " شملت الساحة بلاد
الإسلام الواقعة من حدود العراق إلى تركستان... " (١)، وقد استفحل أمر المغول واشتد
إفسادهم من أقصى بلاد الصين إلى أن وصلوا إلى بلاد العراق وما حولها، حتى انتهوا
إلى أربل (٢) وأعمالها، فملكوا في سنة واحدة سائر الممالك إلا العراق والجزيرة (١)
ومصر... " (٢).

(١) تركستان: اسم جامع لجميع بلاد الترك، وأول حدهم من جهة المسلمين فاراب، ومدائنهم
المشهوره ست عشرة مدينة، انظر: البغدادي، مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع،
ج ١، ص ٢٥٩.

(٢) أربل: مدينة تعد من أعمال الموصل، انظر: الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ١٣٨.

وكان المغول يخرجون بين حين وآخر إلى المدن الإسلامية التي امتدت إليها التعمير، فيعملون فيها نهباً وسلباً، وفي أهلها قتلاً وسبياً^(٣)، فمن المدن التي تعرضت للأذى المغولي، ونزلت بهم نكبتهم، مدينة حلب، فقد غزتها جيوشهم سنة ٦٥٨هـ، وفتحوها بالأمان " ثم غدروا بأهلها، وقتلوا منهم خلقاً لا يعلمهم إلا الله، ونهبوا الأموال، وسبوا النساء والأطفال، وجرى عليهم قريب مما جرى على أهل بغداد^(٤)، فجاسوا خلال الديار، وجعلوا أعزة أهلها أذلة، وامتنعت عليهم القلعة شهراً، ثم استلموها بالأمان، وخرب أسوار البلد، وأسوار القلعة، وبقيت حلب كأنها حمار أجرب....." ^(٥).

وقد رثى حلب ووصف ما حل بها صاحب كمال الدين ابن العديم، بقصيدة بقي بين أيدينا منها أبيات قليلة^(٦)، لا تحمل تفصيلاً، فقد هدمت المساجد، وخربت المدارس، وعبث الغزاة بكتبها وألقوا بها إلى الأرض، ويختتم الشاعر قصيدته بالرضى بقضاء الله، الذي له حكمة في كل ما يفعل، ومن ذلك يقول^(٧):

وعن حلب ما شئت قل من عجائب أحلّ بها يا صاح أن كنت تعلمُ

(١) الجزيرة: وهي التي بين دجلة والفرات، مجاورة الشام، تشتمل على ديار مضر وديار بكر، بها مدن جليلة ومنها: حران والرها والرقّة ورأس عين ونصيبين، انظر: المرجع نفسه، ج ٢، ص ١٣٤.

(٢) انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص ٣٥٩. ابن كثير، البداية والنهاية في التاريخ، ج ١٣، ص ٨٦، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٣٣ - ٢٣٤.

(٣) انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص ٤١٩ - ٤٧٦.

(٤) للاستزادة انظر: جرار، مأمون، أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي من القرن السابع إلى القرن التاسع للهجرة، مكتبة الأقصى، عمان، الأردن، ١٩٨٣م، ص ١٤٠.

(٥) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢١٨، وانظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٧، ص ٧٦.

(٦) انظر: الطباخ، الشيخ محمد راغب، أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، المطبعة العلمية، حلب، ١٩٢٣م، ج ٢، ص ٣١٤، حيث يذكر أنه بحث عن هذه القصيدة كثيراً فلم يجد أكثر مما رواه أبو الفداء.

(٧) أبو الفداء، محمد، تقويم البلدان، دار الطباعة السلطانية، باريس، ١٨٤٠م، ج ٣، ص ٢١٥.

فيا لك من يوم شديد لغامه وقد أصبحت فيه المساجد تهدم
ولكنما لله في ذا مشيئة فيفعل فينا ما يشاء ويحكم
وقد كتب المؤرخ الشاعر ابن حبيب^(١)، أبياتاً في وصف حال حلب عند
سقوطها بيد المغول، فقد خلت حلب من أهلها، وتفرق جيشها، وأصيبت القلاع
والأسوار، وخلا المساجد من عماره، أن ما حلّ بحلب يشبه انقطاع عقد جواهر،
وانتثارها بعد انتظام، ومن ذلك يقول^(٢):

حلب خلت من أهلها وتفرقت من جيشها بعد النظام جموعه
والقلعة الشهباء أدهم حظها وأبى وتخت الملك حطّ رفيعه
وانقضّ ركن مقامها وتساقطت أبراجها والجسر طال خضوعه
والجامع المعمور أمسى مفردا ونأى سجد حليفه وركوعه
ومحاسن الأسوار سارت وانطوت وذوت أصول بنائه وفروعه
نثرت عقود الجوهريّ وللشقا نجم على السعديّ كان طلوعه
يا أهلها الباقيين للبين اصبروا فالأمر لله العليّ جميعه
وقد أصاب دمشق نصيب من أذى المغول، عندما وقعت بأيديهم سنة
٦٥٨هـ، وذلك بعد استيلائهم على حلب، " فأخذوها سريعاً من غير ممانعة ولا
مدافع، بل تلقاهم كبارها بالرحب والسعة، وقد كتب هولاءكو أماناً لأهل البلد، فقرئ
بالميدان الأخضر، ونودي به في البلد، فأمن الناس على وجل من الغدر، كما فعل
بأهل حلب، وهذا والقلعة ممتعة مستورة، وفي أعاليها المنجنيق منصوبة، والحال

(١) هو الحسن بنو عمر الملقب بدر الدين الدمشقي الحلبي، ولد سنة ٧١٠هـ، وكان مغرمًا
بالأدب وله في التاريخ: درة الأسلاك في دولة الأتراك، مات سنة ٧٧٩هـ انظر:
الشوكاني، محمد بن علي، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، القاهرة، ١٩٢٩م،
ج ١، ص ٢٠٥.

(٢) ابن حبيب، درة الاسلاك، ج ١، ص ٣٧.

شديدة.....^(١)، وقد انتهى أمر القلعة إلى التسليم، فخرّبوها، وهدموا بروجها، لكن لم يسجل الشعر حال دمشق مع المغول في هذه الحادثة.

لكن في سنة ٦٩٩هـ، استطاع المغول السيطرة على دمشق، بعد انتصارهم على المسلمين في وادي الخزندار، فارتفعت الأسعار، وعم الغلاء، وأحرقوا فيها كثيراً من المساجد والمدارس، وعم النهب^(٢)، وقد سجل علاء الدين علي الاوتاري الدمشقي^(٣) بعض ما جرى في دمشق، إذ يقول^(٤):

أحسن الله يا دمشق عـزّاك	في مغانيك يا عماد البلاد
وبرستاق ^(٥) نيربيك ^(٦) مع المـزّة ^(٧)	مع رونق بذاك الوادي
وبأنس بقاسيون وناس	أصبحوا مغنا لأهل الفساد
طرقتهم حوادث الدهر بالقتل	ونهب الأموال والأولاد
وبنات محجبات عن الشمس	تتاءت بهن أيدي الأعداء
وقصور مشيدات تقضت	في ذراها الأيام كالأعياد
وبيوت فيها التلاوة والذكر	وعالي الحديث بالإسناد
حرقوها وخرّبوها وبادت	بقضاء الإله ربّ العباد
وكذا شارع العُقبّة والقصر	وشاغورها ^(١) وذاك النادي

(١) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢١٩.

(٢) انظر: المرجع نفسه، ج ١٤، ص ٨-١٠.

(٣) علي بن إسماعيل الدمشقي القواس، كان حسن المجالسة، حدث وله نظم توفي سنة ٧٣٦هـ، انظر: ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج ٣، ص ٩٧.

(٤) انظر: علي، محمد كرد، خطط الشام، مطبعة المفيد، دمشق، ١٩٢٨م، ج ٦، ص ٣٧٦.

(٥) برستاق: كل موضع فيه مزدرع وقرى وهو فارسي، انظر: الزبيدي، تاج العروس، ج ٦، ص ٣٥٥.

(٦) نيربيك: من قرى دمشق وجاءت بلفظ النيرب، انظر: الحموي، معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٣٠.

(٧) المزّة: من قرى دمشق، انظر: المرجع نفسه، ج ٥، ص ١٢٣.

وما أورده الاوتاري في قصيدته، يتفق مع ما أورده ابن كثير في هذا الشأن، فقال:

"وفي يوم السبت النصف من ربيع الآخر، شرعت التتار وصاحب سيس في نهب الصالحية، ومسجد الأسدية، ومسجد خاتون، ودار الحديث الأشرفية بها. واحترق جامع التوبة بالعقبة، وكان هذا من جهة الكرج والأرمن من النصارى، الذين هم مع التتار قبحهم الله، وسبوا من أهلها خلقاً كثيراً، وجماً غفيراً، ويقال أنهم قتلوا من أهل الصالحية قريباً من أربعمئة، وأسروا نحواً أربعة آلاف أسير، ونهبت كتب كثيرة من الرباط الناصري، والضيائية، وخزانة ابن البزوري، وكانت تباع وهي مكتوب عليها الوقفية، وفعلوا بالمزة مثل ما فعلوا بالصالحية...." (٢).

(١) من ضواحي دمشق وقراها، انظر على التوالي: المرجع نفسه، ج ١، ص ٣٧٨، ج ٤، ص ٣٥٥، ج ٣، ص ٣١٠.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٤، ص ٨. وانظر: المقرئ، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٨٩٣ - ٨٩٥.

الفصل الرابع

التصوير الفني للمدينة الإسلامية

١.٤ مصادر الصورة:

تعدُّ الصورة تشكيلاً نفسياً قبل أن تكون تشكيلاً فنياً جمالياً، ترتبط بفكر الشاعر، وبالعوامل التي أسهمت في تكوين نتاجه الشعري، ولا تقتصر الصورة على الأنواع البلاغية المعروفة من تشبيه واستعارة وكناية، وإنما تتعداها إلى عناصر الإيحاء المختلفة. وسيحاول هذا الفصل أن يستقصي جوانب الصورة في الشعر الشامي الذي وصف المدن زمن الحروب الصليبية، اعتماداً على الربط بين الشعر والواقع الاجتماعي الذي أفرزه من جهة، والربط بين الشعر والمؤثرات النفسية التي شكلته من جهة أخرى. ولن يغفل النواحي الجمالية الناتجة من تشكيل الصورة، كما لن يغفل دور الإيقاع النغمي في إعطاء الصورة جرساً خاصاً لدى هؤلاء الشعراء. وقد تعددت المصادر التي استرشد الشعراء منها صورهم، ومن أبرز هذه المصادر:

١.١.٤ القرآن الكريم

تفنن الشعراء الشاميون في القرن السادس والسابع الهجريين من الإفادة من آيات الذكر الحكيم، واستحضار ألفاظه وتراكيبه وصوره، ليدخل بنية الآية القرآنية في شعره، ويدمجها في سياقه بغض النظر عن نوع العلاقة بين النص والمستدعى والمعنى الشعري الذي قصد الشاعر إليه. وقد استخدم الشعراء التلويح والإيماء إلى بعض القصص القرآنية الموحية للتعبير عن الفكرة التي يريدونها في عبارة موجزة، ومن أبرز هؤلاء الشعراء فتيان الشاغوري، فعندما تأخر عسكر الملك الأفضل عن دخول دمشق، قال فتيان في ذلك بيتين ملوحاً بقصة أهل الكهف الذي طال نومهم:

إنْ غابت الشمسُ عنهمُ وهمُ لم يدخلوا في عشية البلـدا
فأثُلْ عليهم أنباء ما جاء في الـ كهف، ولن يفلحوا إذن أبـدا

فالشاعر هنا يتماس مع قصة أهل الكهف، وهو تماس يوحي إلى المتلقي باستحضار النص القرآني الغائب المتمثل في قوله تعالى: " فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا "(١)، ولعل الشاعر أراد استنهاض الجيش على النهوض إلى دخول دمشق. ونرى مثل هذا الإيماء الذي يعد دليلاً على صحة المعنى الذي يطرحه، كما في قوله يحتاج في أرض سلبت منه(٢):

عجباً لمن ملك البلاد بأسرها وابتزّتي شبراً بها مَلَكْتُه
فقضيتي في النص في القرآن مع داود والخصم الذي أشبهته
ونستطيع أن نربط هذا بقول الله تعالى : "قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وقليل ما هم، وظنّ داود أنما فتناه فاستغفر ربّه وخرّ راکعاً وأناب"(٣).
وبثّ فتیان الشاغوري في قصائده كثيراً من التراكيب القرآنية بعد تحويرها ونقلها إلى معانٍ شعرية، لكنها لا تخرج عن التأثر بالأسلوب القرآني، كما في قوله يصف دمشق، وينوه بعدل صاحبه(٤):

دمشق هي الفردوس طيباً وعدله هو الشمس لم يجعل له دونها سترا
فهنا يقرن دمشق بالفردوس طيباً وجمالاً، ويشبه عدل الممدوح كالشمس في الظهور والانتشار، وهذا مستوحى مع النص القرآني في قوله تعالى: " حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا "(٥).
ويولد الشاعر أحياناً من النص القرآني معنى جديداً بأن يتصرف قليلاً في الآية الكريمة، فهو يأخذ قوله تعالى : " فصبّ عليهم ربك سوط عذاب "(٦)، ويعدّل سياقه، فيقول(١):

(١) سورة الكهف، آية ١١.

(٢) الشاغوري، ديوانه، ص ٥٦.

(٣) سورة ص، آية ٢٤.

(٤) الشاغوري، ديوانه، ص ١٥١.

(٥) سورة الكهف، آية ٩٠.

(٦) سورة الفجر، آية ١٣.

وصبّ على الأعداء سوط مذلة وأنافهم رُغْمٌ، وأوجههم رُبْدٌ

فهو لم يأخذ الآية الكريمة على هيئتها في أصولها، بل تصرف بها عن طريق التبديل، فاستبدل بكلمة (عذاب) كلمة (مذلة)، وتولد هذا التبديل صورة ذات طاقة إيحائية جديدة.

وأحياناً يحتاج الوقوف على هذا الاستدعاء إلى بعض التأمل والتدبر لامتزاجه في نسيج النص الشعري من ناحية، وتعدد الاستدعاءات من ناحية ثانية، وهذا ما نراه عند الرشيد النابلسي، إذ يقول في وصف حصن كوكب^(٢):

ولو صَدَمَتْ به السدّ الذي اطأدت قطراه لاندكّ منه القعرُ والزبرُ

لقد رأى كوكبٌ في نفسه عجباً وكاد كوكبُه الدريّ ينكدرُ

أضرمّت جذوةً بأسٍ في جوانبه أنفاسُها في نفوس الشوكِ تزدفِرُ

فقد مزج في هذه الأبيات التي تصف منعة حصن كوكب بين عدة مواقع قرآنية: "أتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال أتوني أفرغ عليه قطراً"^(٣)، وقوله تعالى: "الزجاجة كأنها كوكب دري"^(٤)، وقوله تعالى: "إذا رأيتم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً"^(٥)، وتحول بها عن سياقها لبناء صور جديدة تؤدي وظيفة دلالية قريبة من وظيفتها القرآنية.

(١) الحنبلي، شفاء القلوب، ٣٤٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٢٢.

(٣) سورة الكهف، آية، ٩٦.

(٤) سورة النور، آية ٣٥.

(٥) سورة الفرقان، آية ١٢.

ويستوحى ابن القيسراني القصص القرآني حين يصور فتاك نور الدين بحصن العريمة^(١) وتدميره له، فيقرنه بقوم ثمود الذين عقروا الناقة، فصب الله عليهم عذابه، إذ يقول^(٢):

وعارمَ يوماً بالعُريمةِ فاغتَدَّتْ كواذي ثمودٍ إذ رَغَا فيه سَبْقُهُ

ومن الصور المتكررة لمدينة دمشق صورة الجنة التي تجري من تحتها الأنهار، ويحظى ساكنوها، بأصناف من النعيم، فيعيشون في فرح وحبور، كما في قول ابن منير^(٣):

دار هي الجنة المحبور ساكنها إن لم تكنها وإلا فهي تحكيها
ودار نور الدين كعبة محفوفة بالطائفين^(٤):

لا تزل دارك كيف انتقلت كعبة محفوفةً بالطائفين
وحلب بعدما طرد نور الدين الروافض منها، غدت داراً حراماً مثل مكة المكرمة، يقول ابن منير^(٥):

وما "حلب" البيضاء مُذْ صنتها إلا حرامٌ مثل "أم القرى"

أما الأحداث السياسية فكان له دور واضح وجلي في شعر الشعراء الشاميين، إذ دفع الاضطراب السياسي إلى أن يستمد الشعراء مصادر صورهم، ولا سيما الصراع الذي احتدم بين أبناء صلاح الدين على السلطة، فعندما فتح الملك الكامل

(١) العريمة: حصن قريب من طرابلس، (معجم البلدان: العريمة) انظر حوادث سنة ٥٤٣هـ — في: ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٦٦-٤٦٧، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ٢١، ابن واصل، مفرج الكروب، ١: ١١٤، وادي ثمود: بالحجر بين الحجاز والشام، يمر به المسافر بطريق البر، وفيه آثار مدائن النبي صالح عليه السلام، رغا: صوت وضج، والرغاء صوت الإبل، السقب: ولد الناقة. انظر: ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٦٩م، ج ٢، ص ٤٥٠-٤٥١.

(٢) ابن القيسراني، شعره، ص ٧٧.

(٣) ابن منير، ديوانه، ص ١٧٨.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٠١.

(٥) المرجع نفسه، ص ٢٠٧.

دمشق بعد المعظم عيسى، وأعطاه الملك الأشرف موسى، قال ابن عنين بيتين مزج فيهما الهزل بالجدّ الذي ينطوي على قدر كبير من المرارة^(١):

وكنّا نرجي بعد عيسى محمداً ليُنقذنا من لاعج الضّرّ والبلوى
فأوقعنا في تيه موسى فكلّنا حيارى ولا منّ لديه ولا سلوى

٢.١.٤ الإنسان:

من المصادر التي استقى منها الشعراء صورهم الإنسان في سلوكه وصفاته، ولعل الصورة المتكررة للمدينة في الشعر الشامي هي صورة امرأة، وقد تبذت هذه المرأة في أحوال متعددة، فإذا كانت المدينة قد استردت من الأعداء عنوة فإنّ الشاعر يصورها امرأة عذراء عفيفة لم ينل الأعداء من شرفها (حصان الذيل لم تقذف بسوء)، كما في قول ابن الساعاتي يصف طبرية وكيف أنها "مدينة حصان"^(٢):

حصانُ الذيلِ لم تُقذَفَ بسوءٍ وسَلَّ عنها الليالي والسنينَا
فضضتْ ختامها قسراً فَمَنْ ذا يصدّ الليثَ أن يُلجَ العرينَا

وقد يتحدث الشعراء عن افتضاض البطل لهذه المدينة (العروس) قسراً، بيد أنها تلين له في النهاية لأنها وجدت فيه الزوج الذي ترضاه، كما في قول ابن القيسراني في مدينة الرُّها^(٣):

مدينة أفكٍ منذ خمسين حجةً يفلّ حديد الهند عنها حُداةُ
وجامحةٌ عزّ الملوك قيادها إلى إن ثاها من يعزّ قيادهُ
وصدّت صدود البكر عند افتضاضها وهيهات كان السيف حتماً سفادهُ
ولا تكاد تختلف تفاصيل الصورة التي رسمها شهاب الدين محمود لمدينة طرابلس بعد أن استردها المسلمون بقيادة الملك المنصور بن قلاوون عن صورة

(١) ابن عنين، ديوانه، ص ١٣٢.

(٢) ابن الساعاتي، ديوانه، ج ٢، ص ٧٥.

(٣) ابن القيسراني، شعر ابن القيسراني، ص ١٤٨.

طبرية، فقد ظهرت المدينة في صورة فتاة ممنعة تعاونت على اقتحامها عزيمة الممدوح، ويلحق الشاعر الصور الأنثوية فيصف المدينة بأنها (بكر) وأنها لحظة فتحه لها (انثنت تميد)... يقول^(١):

ممنعةً بكرٌ وهل في جميع ما تملكته إلا ممنعةً بكرٌ
فكم مرّ من دهرٍ وما مسّها أذى وكم راح من عصرٍ وما راعاها حصرٌ
ففاجأتها بالجيش كالموج فانثنت تميدٌ وقد أربى على نحرها السّبرُ
فززلتها بالركض فانهدّ ركنها ولم يبقَ من دون المنايا لها سترُ
وإذا كانت المدينة المحتلة تنتظر يوم التحرير، فإنّ الشاعر يصورها " عروساً بكرًا " تزف نفسها للرجل الذي يخلصها من الأعداء، ويعيد لها حريتها التي سلبت، ومن ذلك يقول الملك تقي الدين عمر^(٢):

جاءتْكَ أرضُ القدسِ تخطبُ ناكحاً يا كفأها ما العُذرُ من عذارئها
زُفّتْ إليك عروسَ خدرٍ تجتلي ما بينَ أعبدها وبينَ إمائها
إيه صلاح الدين خذها عادةً بكرًا، ملوكُ الأرضِ من رقبائها
ويرسم ابن منير صورة موسعة لمدينة حلب، بعد أن طرد الروافض منها، استوحى عناصرها من الحياة الأنثوية، فمثّلها في هيئة امرأة مريضة أزال نور الدين شكاتها فبرأت) وأخذت تتبختر في ثوب قشيب من العدل والبذل، ومن ذلك يقول ابن منير^(٣):

تَبَخَّرْتُ في كسا عدلٍ وبذل مدبجة التّهائم والنّجاد

(١) ابن حبيب، درة الأسلاك، ج ١، ص ١٨٧.

(٢) الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، ج ١، ص ٨٦.

(٣) ابن منير الطرابلسي، ديوانه، ص ٢٠٤.

وكذلك مدينة حلب عند ابن الساعاتي، تراءت في صورة امرأة لم تعص
صلاح الدين تمنعاً وتأبياً، وإنما غضبت وغارت لأنه أهملها، واهتمّ بغيرها من
المدن الشامية، إذ يقول^(١):

هي العقيلة حُسنا والزمان بها	متيم كلف الأحشاء غير خلي
رشيقة القـد لا تسمو إليه يد	أسيلة الخـد لا تدنو من القـبل
بكر المعازل فاخطبها مكابرة	بكل ألمى أصم الكعب معتدل
فما سواك لها بعل وقد عطلت	فحلها بتلافيتها من العطـل
غارت، وحقك، من جاراتها فشكت	ما باله بافتضاضي غير محتفل

ورأى الشعراء بين صورة المرأة البكر الممتعة تأبياً وبين صورة المرأة
المتبرجة في سياق حديثهم عن المدن التي فتحها الزنكيون والأيوبيون لتوحيد بلاد
الشام، فقد انشد ابن القيسراني قصيدة رسم فيها صورة محبة لدمشق، إذ خطبها نور
الدين ووافق وليها على ذلك، وقد قدم إليها مهراً كبيراً من الأمن والعدل، وأصبحت
على مر الأيام تسرح حبا لنور الدين، على الرغم من امتناعها عنه في البداية وذلك
دلالة منها، فيقول^(٢):

خطبت فلم يحجبك عنها وليها	وخطب العلى بالسيف ما دونه ستر
جلاها لك الإقبال حورية السنّا	عليها من الفردوس أردية خضر
خلوب أكنّت من هواك محبة	نمت فانتمت جهراً، وسر الهوى جهراً
فسقت إليها الأمن والعدل نحلة	فأمتت ولا أسر تخاف ولا إصر
فإن صافحت يمينك من بعد هجرها	فأحلى التلاقي ما تقدمه هجر
وهل هي إلا كالحصان تمنّعت	دلالة، وأن عزّ الحيا وغلا المهر
ولكن إذ ما قستها بصادقها	فليس له قدر وليس له قدر

(١) ابن الساعاتي، ديوانه، ج ٢، ص ٣٨٣.

(٢) ابن القيسراني، شعر ابن القيسراني، ص ١٩٤.

ونرى المدينة في صورة امرأة عند شهاب الدين محمود الحلبي، إذ استطاع الشاعر رسم لوحات فنية متعددة لها لعل أجملها تلك اللوحة التي وصف فيها حصن المرقب مصوراً ارتفاعه الشاهق، ومطاولته نجوم السماء، مشبها إياه وقد لفه الظلام بالغادة الحسناء، فيقول^(١):

أوردتها المرقب العالي وليس سوى ماء المجرة في أرجائه نهـر
كأنه وكأنّ الجوّ يـكنفه وهمّ تمثّله في طيّها الفكر
يختال كالغادة العذراء قد نظمت منه مكان اللآلي الأنجم الزهـر
له الهلال سوارٍ والسّهـا شنف والقلب قلبٌ ومسودّ الدجى طرر

ويبدو أنّ صورة الفتاة الحسناء استهوت الشاعر، لذا عاد في قصيدة أخرى وصف فيها حصن المرقب إليها، فشبهه بعذراء ترفل في ثياب من الذهب لكثرة الأسلحة التي أحاطت به، مستوحياً أي الذكر الحكيم في تصوير صعوبة الاقتراب منه، ويقظة الفرنجة في حراسته والدفاع عنه، إذ يقول^(٢):

والحصن من شفق الحديد كأنه عذراء ترفل في رداءٍ مذهب
سامى السماء، فمن تطاول نحوه للسمع مسترقاً رماه بكوكب
والرها في شعر ابن منير أخت الكواكب عزاً^(٣)، وهي أخت النجم^(٤)،
وحمص أخت النجم وقد تشامخ أنفها عزاً^(٥)، وهي فتاة حسناء أكره ملك الفرنجة
على طلاقها^(٦)، وعزاز (أم النجوم) وفتاة (عذراء) افترعها نور الدين بالوشيج^(٧).

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٧، ص ٣١٧.

(٢) ابن حبيب، درة الاسلاك، ج ١، ص ١٢٥.

(٣) ابن منير، ديوانه، ١٩٦.

(٤) المرجع نفسه، ١٩٩.

(٥) المرجع نفسه، ٢٢١.

(٦) المرجع نفسه، ٢٢١.

(٧) المرجع نفسه، ٢٢٢.

وشبه ابن القيسراني الثغور الشامية بعد تحرير نور الدين لها، بالفتيات اللواتي يضحكن فرحاً واسفرن عن ثغور جميلة، وأسنان براقعة، يقول^(١) :
يا من أعادَ ثُغورَ الشامِ ضاحكةً من "الطُّبى" "عن" ثُغورِ زانها الشَّنبُ
وتبدو الرُّها التي قاومت نور الدين ثم استسلمت له في صورة امرأة حمقاء
في شعر ابن القيسراني، يقول^(٢):

كيوم الرُّها الورهاء والهامُ يانعٌ مَلِيٌّ برعيِ الهُندوانيِّ خصْبُهُ^(٣)
وكذلك كثرت الصور المستمدة من عالم الإنسان في وصف الشعراء للمشهد الطبيعي للمدن الشامية، فالقاضي محي الدين الشهرزوري يرى أن روض دمشق (ضاحك الزهر)، وذلك إذ يقول^(٤):

وتعَثَّرُ بكلِّ روضٍ أنيقٍ ضاحكُ الزهرِ من بُكاءِ الغَمامِ
أما علم الدين الشاتاني^(٥) فيرى أن المطر بكاء أعين السماء، فأضحك ذلك الروض التي بدت في زينتها مثل الغواني، يقول^(٦):

وبكتُ أعيُنُ السماءِ بدمعٍ أضحكُ الأرضِ فالرَبى، كالغواني
ويمثل ابن الساعاتي سماء دمشق وقد تتأثرت فيها الغيوم، فتاة لبست قناعاً، يقول^(٧):

أرأيت أحسن من ملاءة أرضها وسماءها لبست قناعَ دُجونها

(١) ابن القيسراني، شعر ابن القيسراني، ص ٧٤.

(٢) المرجع نفسه، ص ٧٧.

(٣) الورهاء: الحمقاء، من الورء وهو الخرق والحمق. الهام: جمع الهامة وهي الرأس، الهندواني: السيف المطبوع من حديد الهند.

(٤) الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، ج ١، ص ٣٣١.

(٥) هو أبو علي الحسن بن سعيد بن عبدالله، الملقب بعلم الدين، وشاتان من نواحي ديار بكر، ولد سنة ٥١٠هـ، وتوفي سنة ٥٩٩هـ، انظر ترجمته عند ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، ج ١، ص ١٤٠، ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق الكبير، ج ٤، ص ١٧٧.

(٦) الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، ج ١، ص ٣٦٨.

(٧) ابن الساعاتي، ديوانه، ج ١، ص ١٢٥.

وتتعدد في الأبيات التالية التي قالها ابن الساعاتي، الصور المفردة المستمدة من عالم المرأة في وصفه ربيع إحدى المدن، يقول^(١):

والبرقُ طلقُ كالأحبة ضاحك
في حجر غيم كالرقيب معبس
والروضُ فيه من الحسان ملامح
وضاحة للناظر المتفرس
فخدوده وردٌ وهيف قدوده
قُضبٌ ودُعج عيونه من نرجس

وحين مدح ابن الساعاتي الملك المعظم عيسى، نوّه باهتمامه بمدينة دمشق وصورّها عروساً حصاناً زُفّت إليه، وقد نظم لها الغيث عقداً ثميناً زان جيدها، وقد افتخرت هذه المدينة ببعلها، يقول^(٢):

عروسٌ حصانٌ كان يوم زفافها
من الدّهر عيداً للسّماخ وموسما
له ركبت خيل الأمانى مغيرةً
وما ركبت إلّا لتغنى وتغنّما
ونظّمت الأنواء عقداً مفصلاً
يزين من البطحاء بُرداً مسهماً
به عرفت أنّ البُعولَ حصانةً
فلا رجعت يوماً من الدّهر أيّما

ويرسم ابن منير صورة طريفة لربيع دمشق وأنواع الأزهار الذي تفتحت فيه، فيصوره فتاة جمعت ضروباً من الحسن من سواد شعرها، وحمرة خدّها، وبياض مبسمها، وخضرة عيناها، ومن ذلك يقول^(٣):

أبدت دمشقُ ربيعاً جلّ صانعهُ
يأتيك في كل حينٍ غير مكنونٍ
سودُ الذّوائب في حُمُر الخُدود على
بيضِ المباسمِ في خُضُر الجفانين

ويمثّل ابن منير مدينة دمشق وقد سقتها الغوادي فربت أرضها في صورة امرأة تهتز أعطافها تيتهاً وخيلاء، يقول^(٤):

سقى دمشقٌ ومغنىً للهوى فيها
حيّاً تهتز له أعطافها تيتهاً

(١) ابن الساعاتي، ديوانه، ج ١، ص ١٢٦.

(٢) ابن الساعاتي، ديوانه، ج ١، ص ١٧٩.

(٣) ابن منير، ديوانه، ص ١٧٥-١٧٦.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٧٨.

ويمزج ابن منير بين مظاهر إنسانية متعددة حين يصف ربيع دمشق، وما فيه من أزاهير متنوعة، فتبدو الرياض في ناظريه فتيات حساناً ترتدي ثياباً قشبية تختال بها، أما تنوع ألوان هذه الأزاهير أحمر وأصفر، فيرده الشاعر إلى ما يخطر في ذهن الإنسان من مراقبة وخوف، وحين يرى النوار وقد قذفه الريح في مياه بردى تنقذ في ذهنه صورة جيشين احدهما مخدول وآخر منصور، يقول^(١):

اليومَ نورُ جَيْبِ الدُّجْنِ مَزْرُورُ	والظِّلُّ مُنْتَظَمٌ وَالطَّلُّ مَنُثُورُ
اليومَ نورُ جَيْبِ الدُّجْنِ مَزْرُورُ	والظِّلُّ مُنْتَظَمٌ وَالطَّلُّ مَنُثُورُ
وللرَّيَاضِ اخْتِيَالٌ فِي مَلَابِسِهَا	مِثْلَ الْقَصَائِدِ مَمْدُودٌ وَمَقْصُورُ
كَأَنَّ مَا اصْفَرَ وَالْمَحْمَرُّ يَرْقُبُهُ	فِي مَحْفَلِ النُّورِ مَحْزُونٌ وَمَسْرُورُ
كَأَنَّ أَكْمَامَهُ مِنْ تَحْتِ زَاهِرِهِ	فِي الدَّوْحِ ضِدَّانَ : مَهْتَوِكٌ وَمَسْتَوْرُ
كَأَنَّ نَوَّارَهُ وَالرَّيْحُ تَقْذِفُهُ	فِي الْمَاءِ جَيْشَانِ : مَخْدُولٌ وَمَنْصُورُ

ويصور ابن عنين إحدى رواي دمشق وقد لاحت من بعيد والتلج يكسوها مثل عروس سوداء من آل ساسان تجلى يوم عرسها وقد اكتست حلة مزرکشة، يقول^(٢):

ورباً عزتاً وقد جادها التلـ	جُ ولاحت من سائر الأقطارِ
كعروسٍ من آل ساسان تجلى	ففي ديبقي حُلَّةٍ وإزارِ

٣.١.٤ الحياة الاجتماعية:

رفدت الحياة الاجتماعية والأحداث السياسية بمجالاتها المتعددة الشعراء الشاميين بصور متنوعة، فقد استعار ابن عنين تشبيهه من الحياة الاجتماعية عندما وصف أهل حلب الذين يبالغون في نتف شعر خدودهم حتى أصبحت وجناتهم كالمنخل، ومن ذلك يقول^(٣):

ما زال يَنْتَفُ شعْرَ خَدَّيْهِ إِلَى أَنْ أَصْبَحَتْ وَجَنَاتُهُ كَالْمُنْخُلِ

(١) ابن منير، ديوانه، ص ١٤٩.

(٢) ابن عنين، ديوانه، ص ٧٥.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٣١.

واتخذ ابن عنين بعض شخصيات المدن الإسلامية له مجالاً رحباً لبناء صورته، فكان يقرن بعضها ببعض على سبيل التشابه أو التناظر، أو يشبه بها بعض المظاهر السلبية، مما جعل شعره معرضاً لكثير من أسماء معاصريه، ومن ذلك يقول^(١):

زعموا أنني هجوت ابن شيثٍ كيف أهجوه وهو في العلم آيةٌ
إنما قلت إنه حسن الظنِّ — من حليمٍ كأنه ابن نفايسة

وقد استعار فتیان الشاغوري تشبيهه من الحياة المذهبية عندما شكّا من إهمال أهل دمشق له، وعدم عنايتهم به، يقول^(٢):

أراني غريباً في دِمَشقَ، وأهلها بصيرونَ بي لكنْ عَمُوا عَن محاسني
فيا ضيَعَتِي فيهم وَفَضْلِي ظاهراً كأنني لديهم مصحفٌ عندَ باطني

وشغف الرشيد النابلسي بإيراد الصورة المستوحاة من الحياة في شعره، فبذل في طلبها جهداً واسعاً، فإذا ما شاهد الناس مجتمعين حول أحد الغلمان الصباح في مدينة دمشق تمثل صورة الحجاج وهو يتزاحمون في البيت العتيق، ومشهد الناس وهو يجتمعون لاستماع أحاديث السمر، ومن ذلك يقول^(٣):

وشــــادَن رأيتُــــهُ وحولهُ الناس زُمُرُ
كأنه البيت لِمَنْ حجَّ إليه واعتمرُ
فقلــــت هل أــــدوثة تتلى عليكم أو سمرُ

وتبدو معاقل الأعداء في مخيلة ابن القيسراني بعد معركة أنب بيتاً أخذ يتهاوى لانقطاع الحبال الذي تشده إلى الأرض، إذ يقول^(٤):

وأيقَنتُ أنها تتلّو مَراكِزها وكيف يَنْبُتُ بيتُ مالِهُ طُنْبُ^(٥)

(١) ابن عنين، ديوانه، ص ٢٢٤.

(٢) الشاغوري، ديوانه، ص ٥١٨.

(٣) ابن الشعار، قلائد الجمان، ج ٣، ص ٤٠٦.

(٤) ابن القيسراني، شعر ابن القيسراني، ص ٧٥.

(٥) الطنب: جمع الطنب، وهو الحبل يُشدّ به البيت والسرداق.

ويخيل لابن منير الطرابلسي وقد تَضَوَّعت رائحة الأزهار من رياض دمشق
واهتزت أرضها وربت، أنَّ عطاراً قد بثَّ طيبه فيها، وأنَّ خماراً قد سكب خمره في
أرضها، ومن ذلك قوله^(١):

لا زال للدَّوح عطاراً يراوحها وللسحائب خَمَّاراً يُغاديها
أما الأمن الذي حظيت به ديار الشام في عهد نور الدين، فيصوِّره ابن منير
لباساً ليناً وثيراً، يقول^(٢):

لقد ألبس الشام هذا الإباء لبوساً من الأمن ليناً وثيراً
وتبدو ظلال الأشجار التي كان يحلم ابن عنين بتقيئتها في دمشق مثل ثوب
عروس فاح منها عبيرها، يقول^(٣):

أشاقك من عليا دمشق قصورها وولدان روض النيربين وحوورها
ومنبجس في ظلّ أحوى كأنه ثيابُ عروسٍ فاح منها عبيرها
وصور ابن القيسراني فتوح نور الدين وقد أخذت تستعيد ما بأيدي الأعداء
بالمرض الذي أخذ ينتقل بالعدوى من إنسان إلى إنسان ويخصص الشاعر هذا المرض
فيجعله (الجرب) الذي سرعان ما ينتشر في جسم المصاب، يقول^(٤):

عَمَّتْ فتوحك بالعدوى معاقلها كأنَّ تسليم هذا "عند" ذا جَرَبُ

٤.١.٤ الحروب:

كان للحروب الصليبية أثر واضح في بناء الصورة الشعرية، إذ استوحى
الشعراء جانباً من صورهم من الحرب وأسلحتها وكأنَّ الشعراء يعكسون في هذه

(١) ابن منير، ديوانه، ص ١٧٨.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٩٣.

(٣) ابن عنين، ديوانه، ص ١٥.

(٤) ابن القيسراني، شعره، ص ٧٤.

الصور بعض أنماط الشعور التي تغلغت في وجدان الأمة، فقد قرن العرقلة الكلبى لمعان البرق في إحدى رياض دمشق ببريق سيوف الممدوح، يقول^(١):

كَأَنَّ لَمِيعَ الْبَرْقِ فِي جَنْبَاتِهَا سِوْفُ مَعِينِ الدِّينِ بَيْنَ الْكُتَّابِ
ويصف ابن الساعاتي مطلع الفجر وإشراق الصباح، مستوحياً ألفاظ الحرب وصورها، وكأنه يتحدث عن معركة، يقول^(٢):

زَحَفَ الصَّبَاحُ، وَهَذِهِ رَايَاتُهُ فَهَوَتْ نَجُومُ اللَّيْلِ، وَهِيَ حُمَاتُهُ
لَوْ لَمْ تَخَفْ كَرَّ الصَّبَاحِ لَمَا أَنْبَرْتَ فِي الْخَافِقَيْنِ خَوَافَقاً عَذْبَاتُهُ^(٣)
حَرْبُ جَنْتِ قَتْلَ الْكُرَى بِحَسَامِ بَا رَقَهَا فَا بَ خَضِيضَةً صَفْحَاتُهُ
أَوْ مَا تَرَى نَسْرَ السَّمَاءِ مَحَلِّقَا فِيهَا، وَفِي كَفِّ السَّمَاءِ قَنَائِهِ^(٤)
وَكَأَنَّمَا شَفَقَ السَّمَاءُ بِذِيلِهَا دُمُ مَعْرَكٍ تَرْدُ السِّوْفِ كَمَا تُهُ

ويرسم العماد الأصفهاني صورة طريفة للبراغيث، وقد أحاطت به، تخيلها فيها جيشين ضخمين، في أحد المنازل التي حلَّ بها، يقول^(٥):

عَرَضَتْ جَيْشَهَا الْفَرِيقَانِ حَوْلِي وَهِيَ أَوْفَى مِنْ أَنْ تُعَدَّ وَتَحْصَى
لَوْ غَزَا سَنْجَرٌ^(٦) بِهَا الْغُزَّ يَوْمَاً لَمْ يَدَعْ مِنْهُمْ عَلَى الْأَرْضِ شَخْصَا
وحين وصف فتیان الشاغوري تدفق الأنهار في دمشق، خيَّلَ إليه أنه خيول مغيرة، ومن ذلك يقول^(٧):

أَمْوَاجُهُ كَالْخَيُْولِ غَائِرَةً بِهِازِمِ كَاسِرٍ وَمَكْسُورِ

(١) الكلبى، ديوانه، ص ٣.

(٢) ابن الساعاتي، ديوانه، ج ١، ص ٦٥.

(٣) عذباته: أطرافه.

(٤) نسر السماء: مجموعة من النجوم في السماء، سميت بذلك على التشبيه بالنسر الطائر، السماك: نجم في السماء، وهما سماكان

(٥) الأصفهاني، ديوانه، ص ٢٤٩.

(٦) سنجر: هو السلطان سنجر بن الملك شاه بن ألب أرسلان السلجوقي، أقام في الملك نيفا وستين سنة، توفي سنة ٥٥٢هـ، انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٦، ص ٢٣٧.

(٧) الشاغوري، ديوانه، ص ٢٩٧.

وتبدو الغدران وقد هبت عليها النسيم، فتماوجت بين الرياض مثل حبك الدروع،
كما يقول فتیان^(١):

وَكأنَّمَا الغُدرانُ بينَ رياضِهِ حُبُّكَ الدُّروعَ بِمرِّهِ تَتَمَوَّجُ
ويشبه ابن القيسراني حزّ القصب السكري بحزّ رقاب الأعداء، إذ يقول^(٢):
نَزَلْنَا على القَصَبِ السَّكْرِيِّ نزولَ رجالٍ يُريدون نَهْبةً
بِحَزِّ كَحَزِّ رِقَابِ العَدَى وَمَصَّ كَمَصِّ شِفَاهِ الأَحْبَةِ

٥.١.٤ الطبيعة:

استمدّ الشعراء الشاميون كثيراً من صورهم من بيئتهم الطبيعية، حتى بدت
أشعارهم موشاة بصنوف الأزهار والورود، وغيرها من النباتات الجميلة، وقد كثرت مثل
هذه الصور في شعر ابن منير، إذ شبه دولة نور الدين روحها أرج المهب، ودوحها ميّاد،
وهمته حصّادة لزرع النفاق، يقول^(٣):

زهرت لدولتك البلاد، فروحها أرج المهبّ، ودوحها ميّادُ
وإذا العدا زرعوا النفاق وأحصدوا كيداً فعزمك ناقصٌ حصّادُ
ويمثل ابن منير الأمن الذي نعمت به حلب (أفناناً) وارفة الظلال، جنت
بغداد (فواكه أمنها)، إذ يقول^(٤):

يركزن في "حلب" ومن أفنانها تجني فواكه أمنها "بغداد"
وتشكل الطبيعة بمظاهرها الجميلة صورة مدينة دمشق في وجدان ابن عنين وهو
منفيّ بعيداً عن وطنه، فتستدعي مخيلته أوديتها وقد جادها الغيث، فأصبحت رياضاً غنّاء،
يقول^(٥):

فسقى دمشق وواديها والحمى متواصلُ الإرعاد منصمُ العُرى

(١) الشاغوري، ديوانه، ص ٧٦.

(٢) ابن القيسراني، شعر ابن القيسراني، ص ٩٤.

(٣) ابن منير الطرابلسي، ديوانه، ص ٢٦٢.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٦٣.

(٥) ابن عنين، ديوانه، ص ٤.

حتى ترى وجهَ الرياضِ بعارضٍ أحوى وفودَ الدوحِ أزهرَ نيرا
ويستمد الشعراء بعض صورهم من الطيور والحيوانات ومتعلقاتها، فقصف
الرعود الذي يصاحب انهمار المطر في دمشق يتمثل في أذن الخيال عند ابن عنين
أسجاع أطيّار، يقول^(١):

فسقى الله بين آبل والمر ج ثقلاً من الغوادي والسواري
كلّ وطفاء تحسب الرعد فيها بعد وهن تجاوب الأطيّار
ويلوح جبل سنير لابن عنين وقد علته القلعة، مثل سنام فوق غارب بعير،
يقول^(٢):

ولاح سنير عن يميني كأنه سنام رعيب فوق غارب مصعب
ويستوحي فتيان الشاغوري أجواء فصل الربيع فيجعل العيش في ديار الشام
أخضر بعد أن كان ذابلاً، يقول^(٣):

نشر الربيع لنا مطاروي طيبه فاخضر ذواي العيش من ترطيبه
ويصور ابن منير الأعداء وقد حطمهم نور الدين في بيت المقدس بالمراعي
الذي تناثر وتطّير، يقول^(٤):

وغداً يُلقى على "القدس" لها كلّ يدرُسها درس الدّرين
وعندما حاول الفرنجة في أفامية الإغارة على المسلمين، صور ابن منير المدينة
حيواناً مفترساً فغر فمه، فهتم نور الدين أسنانه، يقول^(٥):

فغرت أفامية^(٦) فما فهتمته كبوار أجناها الأران بوارها

(١) ابن عنين، ديوانه، ص ٧٥.

(٢) المرجع نفسه، ص ٨٩.

(٣) الشاغوري، ديوانه، ص ١١.

(٤) ابن منير، ديوانه، ص ٢٠٠.

(٥) المرجع نفسه، ص ٢١٦.

(٦) أفامية: مدينة حصينة من سواحل الشام وكورة من كور حمص.

٢.٤ الصورة والحواس:

اعتمد الشعراء على حواسهم في بناء صورهم اعتماداً واضحاً، وكانت الصور المرئية التي تعتمد على البصر، مثل اللون، والهيئة، وانفعالات الوجه، والحركة بأنواعها من أكثر الصور دوراً في الشعر، كما نجد صوراً أخرى تتوسل بالسمع وتصف الأصوات، وصوراً أخرى تتوسل باللمس والشم^(١).

فقد تداخلت في الأبيات التالية التي قالها ابن القيسراني في وصف ربيع حلب، "أطياف الألوان الزاهية في الاستعارات التي تصوّر الحركة الهادئة والأصوات الخافتة"^(٢)، فبدت صورة فنية متكاملة، إذ يقول^(٣):

ملك المدى يومٌ أغرُّ محبِّل	يأتي السوابق وهو منها أولُّ
يختال في عطفيه جوٌّ ضاحك	ويميس في طرفيه عامٌ مقبِّل
جاء الربيعُ له بأكمل زينةٍ	فأتاك في خلعِ الغمام يرْفَلُ
من أقحوانٍ ما جرى دمعُ الحيا	إلا تبسم من شقيق يخجَلُ
وعيون نورٍ هرمت أجفانها	فسرى ينبهها النسيم المرسلُ
فلكل ضاحكةٍ إذا استجليتها	تغرُّ بأفواه العيون يُقبَلُ

وقد تنوعت الصورة في شعر ابن الدّهان الموصلي، فاختر لها ضرباً من الحركة والألوان والأصوات، كما في الأبيات التالية التي تتابعت فيها الصور الجميلة للرياح التي تهب من تلقاء منازل المحبوبة، يقول^(٤):

سقاها الله منزلةً وحيّاً	طوينا بعدها اللذات طيّا
وأياماً بقربكم تقضّت	كأنّ العيش فيها كان فيّاً
أرى عند الرياح لكم حديثاً	أواجهها فتُميلُه عليّاً

(١) للاستزادة انظر: الرقب، الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري، ص ٣٢٥.

(٢) ابن القيسراني، شعر ابن القيسراني، ص ٤٩٥.

(٣) المرجع نفسه، ص ٣٢١.

(٤) ابن دهان، ديوانه، ص ١٥٠.

أغار إذا الغصونُ صغَتْ إليها مخافةً أنْ ستحكي منه شيئاً
إذا هبَّتْ أحملَّها زفيراً فيرجعُ وقرُّها طيباً ورياً
كأنَّ بها حذاراً من رقيبٍ فتسري خيفةً ليلاً إلياً

فالصورة تغذي النسق العام للأبيات، وترسم إيقاعات فنيو متلاحقة لمواجه الشاعر، إذ تتداخل فيها الحركة المتتابعة، والأصوات الخافتة، والرائحة الزكيّة، وممّا ضاعف جمالها تلك الألفاظ السهلة، والتراكيب السلسة والموسيقى العذبة.

وتتآلف في الأبيات الصورة الحركية واللونية والذوقية في سياق جميل يصور اهتزاز الأغصان، وتساقط جناها على الأرض، ولون هذه الثمار ومذاقها، يقول^(١):

إذا الغصون هَزَناها لِنَيْلِ جنىٍ صارت كواكبها حَصْباً أراضِيها
منْ كُلِّ صفراءَ مثل الماءِ يانعةً تخالُّها جَمَرُ نارٍ في تلظِّيها
لذيذة الطعم تحلو عند آكلها بهيَّة اللون تحلى عند رائِيها

وقد رسم لنا ابن الدهان صورة جميلة للدوح، مازجاً فيها بين الحركة المتمائلة المتماوجة، والصوت الجميل، في إطار من التشخيص يبدو فيها الدوح في صورة فتاة نشوى يغني لها الحمام، ويصفق على النهر، فيهتز طرباً، كما في الأبيات الآتية، إذ يقول^(٢):

نشوى يُغني لها ورُقَّ الحمام على أوراقها ويدُ الأنواءِ تسقيها
صفا لها الشربُ فاخضرتُ أسافلها حتّى ضفا الظلُّ وابيضتُ أعاليها
وصفَّق النهرُ والأغصانُ قد رقصتُ فنقّطتُهُ بِدُرٍّ منْ تراقِيها

وقد يأتي التعبير عن اللون بصورة غير مباشرة، فيستخدم الشاعر ألفاظاً توحى به وتدل عليه، كما في قوله^(٣):

أيّام دولتك الربيع وما سوى أفعالك الحسنى لها أزهار

(١) ابن الدهان، ديوانه، ص ٢٣٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٣٥.

(٣) الحنبلي، شفاء القلوب، ٢١٨.

واستطاع النابلسي أن يوظف الصورة اللونية في المواقف الجمالية، كما في قوله يصف حسن القساوسة في أحد الأديرة^(١):

بين قسوسٍ كأنَّ أوجهَهُمْ لَدَى مَحَارِبِهِمْ قَنَادِيلُ

وحين يصف الرشيد زيارة ليلية لإحدى صاحباته له في أحد المنازل، فإنه يتعلق بالمكان العلوي فيصور النجوم وقد انعكس ضوءها على بسيط أخضر، فبدا هذا الضوء وكأنه زهر متناثر هنا وهناك، وتظهر الثريا في هذا المشهد في صورة عقد أنيق نظامه، ويقرن النابلسي بين الصور اللونية والحركة المتوترة حين يصور الزهرة ترتجف خوفاً من انقضاء النسر عليها، إذ يقول^(٢):

وليلة زارتُ والنجومُ كأنَّما على روضة خضراء من زُهرها زَهْرُ
وعقدُ الثريا في أنيق نظامه يطابقُهُ من أنجم النثر والنثر
وللزهرة الغراء في القرب رجفةً مخافة أن ينقضَّ منقضها النسرُ

ونرى غالباً الصور الحركية في قصائد النابلسي، وتكثر في وصف المشاهد الحربية العنيفة، كما في قوله يصف الجموع الصليبية التي احتشدت في بيت المقدس، يقول^(٣):

جاءوا كما أقبل الطود الأشم له من حيث ما سرت فيه مسلك وعرُ
وجئتهم مثلما انقضَّ القضاء فلا والله لم يغنهم بأس ولا وزرُ
مدّوا كما مدَّ فيض البحر ملتطم الـ أمواج حتى إذا قابلتهم جزروا
ويمزج ابن الساعاتي بين الصور الحركية والصوتية في وصف مدينة دمشق، يقول^(٤):

كم روضةٍ رقصت معاطفُ دوحها واتت بلابلها بحسن لحنها

(١) ابن الشعار، قلائد الجمان، ج ٣، ص ٣٧٩.

(٢) الحنبلي، شفاء القلوب، ٢٦٠.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٦٧.

(٤) ابن الساعاتي، ديوانه، ج ١، ص ١٢٥.

وتتداخل الصور الحركية والصوتية واللمسية والبصرية عند ابن الساعاتي،
في وصف مشهد ربيعيّ، إذ يقول^(١):

إذا رقصت هيف الغصون وصفّت	جداولها زهواً بشدو حمامه
ويا حبذا مرّ النسيم على الحشا	على أنه أعدى الحشا بسقامه
إذا موّه الماء الشعاع بناره	عجبت لبرد الماء تحت ضيرامه
ووجه الضحى طلق الأسرة ضاحك	كوجه صفي الدين يوم سلامه

وتكثر الصور السمعية في شعر فتیان الشاغوري حين يصف بعض المناظر
الربيعية في دمشق، كما في قوله^(٢):

هو كالإمام فكل شحورٍ على	فَنِّينٍ بِمَنْبَرِهِ أَتَى وَخَطِيبِهِ
--------------------------	---

وقوله^(٣):

يا حبذا رقصُ الغُصونِ على غنا	ء الطير حين أجاد في تطريبه
-------------------------------	----------------------------

وقوله^(٤):

في ظله نغم الأوتار تنعم بالأ	وطار من صخبٍ يأتي بمصطحب ^(٥)
------------------------------	---

وقوله^(٦):

يا قاتل الله الحمائم إنها	بغنائها للعاشقين تُهَيِّجُ
---------------------------	----------------------------

وقوله^(٧):

والطَّيْرُ بَيْنَ مُغَرِّدٍ وَمُعَرَّبِدٍ	وَمُرَدَّدٍ وَمُعَدَّدٍ نَوَاحٍ
---	---------------------------------

(١) ابن الساعاتي، ديوانه، ج ١، ص ٢٤٠.

(٢) الشاغوري، ديوانه، ص ١١.

(٣) المرجع نفسه، ص ١١.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٥.

(٥) المصطحب: يرجح أنه الانسجام النغمي.

(٦) الشاغوري، ديوانه، ص ٧٦.

(٧) المرجع نفسه، ص ٩٠.

ويوظف فتيان الصورة الذوقية في وصفه لأخلاق الممدوح، كما في قوله^(١):
خَلَقَهُ كَالْجَلَّابِ^(٢) إِنْ يَرْضَ خَلْقَ يَجْلُبُ السُّخْطَ سَطَوُ سَوَطِ عَذَابِ
كما يستخدم الصور الشمية في أوصافه، كما في قوله^(٣):
أَنْتَ طَيِّبَتَ أَرْضَ جِيرَانِ جِيْرُونَ^(٤) فَفَاحَتْ بَيْنَ الْمَلَا بِالْمَلَابِ
وقوله^(٥):

فَكَأَنَّمَا أَنْفَاسُهُ مَا بَيْنَنَا عَبَقَتْ بِغَالِيَةٍ عَلَى تَفَّاحِ
وتكثر الصور الحركية في وصف فصل الربيع في شعر فتيان، ويقدم لنا ألواناً من
الحركات، كما في قوله^(٦):

أَوْ مَا تَرَى أَنَّ الرَّبِيعَ كَأَنَّهُ تَمَلُّ يَرْنَحُهُ هُبُوبُ رِيَّاحِ
وَالرَّوْضُ يَغْمَزُنَا بَعِينِي نَرْجِسُ غَضٌّ وَيَبْسُمُ عَنْ ثُغُورِ أَقْصَاحِ
وَكَأَنَّمَا الْمَنْثُورُ مَدًّا أَكْفَاهُ بِأَنَامِلٍ بَيْنَ النَّدَامِ مِلاَحِ^(٧)
ويتراءى لفتيان الشاغوري وهو يصف طبيعة مدينة دمشق، أن يقدم مجموعة من
الصور اللونية الجميلة التي تعبر عن جمال المنظر، إذ يقول^(٨):
رَوْضُ الرَّبِيعِ مُفَوِّفٌ وَمَدْبَجٌ هَلْ كَانَ فِي صَنْعَاءَ قَدَمًا يُنْسَجُ

(١) الشاغوري، ديوانه، ص ٤٤.

(٢) الجلاب: اصطلاح مولد وهو ماء الزبيب المنقوع.

(٣) الشاغوري، ديوانه، ص ٤٥.

(٤) جيرون: باب من أبواب دمشق وأصله باب معبد دمشق القديم.

(٥) الشاغوري، ديوانه، ص ٩٠.

(٦) المرجع نفسه، ص ٩٠.

(٧) ندام: جمع نديم.

(٨) الشاغوري، ديوانه، ص ٧٥.

وقوله^(١):

إِنَّ فَصْلَ الرَّبِّيعِ بُورِكَ فَضْلاً طَيْبٌ نَشْرُهُ قَشِيبٌ الْبُـرُودِ

ويمزج ابن عنين أيضاً بين الصورة والحواس، فتكثر عنده الصور السمعية والبصرية والشمية، كما في قوله عندما كان ينتشوق إلى دمشق وهو بعيدٌ عنها^(٢):
وروضاً إذا ما الريحُ فيه تتسمتُ سُحيراً تخالُ المَنْدَلُ الرطبُ أضرماً
وقوله^(٣):

ومدامةً من صيدنايا نَشْرُها من عنبر وقميصها من صَنْدَلِ
وينقل لنا في البيت التالي تغريد الطيور قارناً ذلك بغناء القيان، كما في قوله^(٤):

إذا ضاع رِيَّاهُ أذاعتُ طيورُهُ الـ — حديث فتغني عن قيانٍ ومشحبٍ
ويمزج في البيتين التاليين اللذين يصف فيهما رياض دمشق، بين ألوان عدة، كما في قول ابن عنين^(٥):

فما بسطت كفُ الخُضيبِ^(٦) بنانها على الأرضِ إلا وهي مَوْشِيَّةُ الأزرِ
فلا حبراتُ العصبِ من نسجِ حميرٍ حكتهَا ولأما وشَعَ القبطُ في مصرِ
وكذلك في قوله^(٧):

ولاحت جبالُ الثلجِ زُهرًا كأنها ضيَاءُ صباحٍ أو مفارقُ أشيبِ
وشامت قلوصي من حمى تلِ راهطٍ رياضاً حكْتُ وشي اليماني المَعْصَبِ

(١) الشاغوري، ديوانه، ١١٧.

(٢) ابن عنين، ديوانه، ص ٨٠.

(٣) المرجع نفسه، ص ٨٤.

(٤) المرجع نفسه، ص ٨٩.

(٥) المرجع نفسه، ص ٨٨.

(٦) الكف الخضيب: نجم.

(٧) ابن عنين، ديوانه، ص ٨٩.

٣.٤ التشكيل البلاغي لصورة المدينة:

كثرت الصور التقليدية التي استمدتها الشعراء الشاميون من أسلافهم، لكنهم لم يقفوا عند حدود الصور الموروثة، وإنما استفرغوا كثيراً من طاقاتهم الفنية في الإتيان بالتشبيهات والاستعارات الجديدة، واستخراج الصور الطريفة، وتوليد المعاني المبتكرة، وقد ربط ابن الأثير ما بين المعاني المبتكرة وبين الصور القديمة ربطاً وثيقاً، ونصح الشاعر بأن يطلع على أشعار الأقدمين لعله ينقذ له منها معنى غريب لم يسبق إليه^(١).

وقد توسّل الشعراء الشاميون بأساليب فنية متعددة في تشكيل صورة المدينة، فكثيراً ما كان الشعراء يلجأون إلى الرسم المباشر بالكلمات، فيستخدمونها في معانيها الحقيقية، مستثيرين قدرتها الإيحائية لتأدية المعاني في تعابير جميلة، كما في الأبيات التالية لشهاب الدين التلعفري حيث تتآزر فيها الدلالات الحقيقية للألفاظ، وما تستثيره من ظلال وإيماءات لرسم صورة متمنّاة لمدينة دمشق، يقول^(٢):

جادتك يا - شرف الميدان - سارية	ولا تعدّاك هامي الودق هتّان ^(٣)
ودبّجت لك يا سطرى سطور ربا	من الرياض لها بالزهر ألوان ^(٤)
وفاح يا وادي الشقراء - منك شذا	يضيع حين يَضوعُ الوردَ والبان ^(٥)
وراق مأوك يا ثورى - ولا برجت	تميل فوقك بالأطيار أغصان ^(٦)
ودام رفقك - يا باناس - مُتصلاً	حتى يرى كلُّ ظامٍ وهو ريّان ^(١)

(١) ابن الأثير، المثل السائر، ج ١، ص ٦٩.

(٢) التلعفري، شهاب الدين، ديوانه، القسم الثاني، رسالة ماجستير، هنرييت سابا، ص ٩٠.

(٣) الودق: المطر كله، شديده وهيته، جاد المطر جوداً: وبل، الهتّان: المطر فوق الهطل، شرف الميدان: من منتزهات دمشق.

(٤) سطرى: من قرى دمشق، دبح الأرض المطر: روضها، والكلمة فارسية معربة والدّبح في الأصل: النقش.

(٥) الشقراء: واد بجانب دمشق.

(٦) ثورى: اسم نهر عظيم بدمشق.

تلك الجنان، التي حيثُ التفت ترى قصراً مُنيفاً، به حور وولدان^(٢)

وفي وصف احتفال بليلة الميلاد في مدينة طرابلس، يقدم لنا أبو المواهب
المعري صورة وصفية جميلة، يقول^(٣):

عزّت طرابلسُ فيالك بلدةً طالت بمالكها على البــــلدان
مَوْجٌ بظاهرها وموجٌ باطن سبحانُ محرزها من الطوفــــان
يا حسنُها في ليلةٍ راحت بها في الله وهي كثيرة النــــيران
ميلادُ من لم تشتهر أعمامه لكن خؤولته بنو عمــــران

ويصف شهاب الدين التلعفري يصف بأسلوب مباشر تحدّر المياه بين رياض
بيروت، وجمال نسائها اللواتي خرجن للتنزه في تلك الرياض، إذ يقول^(٤):

وأمرُّ ببـيروت، حيثُ الماءُ مُنحدرُ يسيحُ بينَ رياضٍ للرياحينِ
حيثُ البُـدورُ على مُلْدِ الغصونِ غدتُ تختالُ في غيْدِ الأعطافِ واللّينِ

غير أنّ أكثر الصور دوراناً في شعر المدينة الإسلامية هي الصور التشبيهية
بأنواعها المختلفة، حيث يبدو المشبه والمشبه به ظاهرين على نحو واضح، ليلتمس
الشاعر وجه مشابهة بينهما توضح فكرته أو تعبر عن عاطفته، أو تزيّن أسلوبه، كما
في قول ابن منير يصف قلعة الرها^(٥):

هي أختُ النّجمِ إلّا أنّها منه كالنّجمِ لرأي المُبصّرينِ

وقد تتوالى مجموعة من التشبيهات في أبيات متلاحقة لترسم صوراً لمناظر
متعددة يأتلف منها مشهد واحد، على شاكلة قول ابن الساعاتي^(٦):

(١) باناس: من أنهار دمشق.

(٢) يشير الشاعر إلى قوله تعالى في سورة الواقعة: "يطوف عليهم ولدان مخلدون.." الآيات ١٧، ٢٢.

(٣) الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، ج ٢، ص ١١٧.

(٤) التلعفري، ديوانه، ص ٢٢٦.

(٥) ابن منير، ديوانه، ص ١٩٩.

(٦) ابن الساعاتي، ديوانه، ج ١، ص ١٢٦.

والبرقُ طلقُ كالأحبة ضاحك
في حجر غيم كالرقيب معبس
والروضُ فيه من الحسان ملامح
وضاحة للناظر المتفرس
فخدوده وردٌ وهيف قدوده
قضبٌ ودُعج عيونه من نرجس
ويمزج ابن الساعاتي بين مجموعة من الصور، ففي وصف للطبيعة يقدم لنا
صورة كلية تقوم على التراكم وجمع الصور الجزئية في سياق واحد لتترك في
النفس إحساساً بجمال المنظر، يقول^(١):

يا حبذا زمنُ الربيع ودوحه
قيدُ النواظر بل عقالُ الأنفس
وافاك يبسم والغمامُ معبسٌ
فاعجب لطلعة باسمٍ ومعبس
جليتُ عرائسه فهم قلوبنا
واللهو بين مقووضٍ ومعرس
أنفاسُهُ من عنبرٍ وسماؤه
من لؤلؤه وبساطه من سُندس

وقد يرسم الشعراء صورة كلية موسعة للمدينة قائمة على الاستكثار من
التشبيهات التي تجتمع في سياق واحد، لتترك في النفس تأثيراً واحداً، كما في قول
ابن منير في مدينة حلب بعد أن طرد نور الدين الروافض منها^(٢):

وهل حلبٌ سوى نفسٍ شعاع
نقى ابن عمادٍ دين الله عنها الشَّـ
تبَخَّرُ في كسا عدلٍ وبذل
مَدْبَجَةُ التَّهائم والنَّجَاد
وفي محرابها داودٌ منه
يهذبُ حكمة آيات صاد^(٣)
تجاوزت النجوم، فأين تبغي
ترقّ، فلا خلوتٌ من ازدياد

وحين وصف فتیان الشاغوري جمال الطبيعة الدمشقية عبّر عن افتتانه بها
بطائفة من التشبيهات الجميلة، إذ يقول^(٤):

(١) المرجع نفسه، ج ١، ص ٢٢٦.

(٢) ابن منير، ديوانه، ص ٢٠٤.

(٣) يقصد سورة ص وهي السورة ٣٨ في القرآن الكريم.

(٤) الشاغوري، ديوانه، ص ١١.

وَأَنَامُلِ الْمُنْثَوْرَ مِنْهُ خِيَّمت فحَثْتُ عَلَى الْكَافُورِ تُرْبَ عِيُوبِهِ
بَسَطَ الْأَكْفَ كَعَاشِقٍ يَدْعُو إِلَى الرَّحْمَنِ أَنْ يَحْطِيَ بِوَصْلِ حَبِيبِهِ
وَالْوَرْدُ كَالْخَجَلَانِ وَالْمُنْثَوْرُ مُسْتَحْيٍ كَصَبٍ مَبْتَلًى بِرَقِيبِهِ

وتكثر كذلك الصور الاستعارية في شعر المدن الإسلامية، غالباً ما تقوم هذه الصورة على التشخيص فتتمثل المعاني والأشياء شخصاً ينبض بالحياة والحركة بشتى مظاهرها، ومن ذلك قول ابن عنين مصوراً في سياق انتقاده أحد القائمين على مسجد دمشق -مصحف عثمان- يصيح ويطلب أن يخلص به، عامداً إلى المفارقة عن طريق الطباق (رافع وخفضه)، واستكمالاً لجوانب هذه الصورة، يقول^(١):

مَصْحَفُ عُثْمَانَ صَاحٌ مِنْ حَقِّ رَافِعٌ قَدْرِي مَا بِالْهِ خَفَضَهُ
الزَنَكُلُونِي صَارَ يَخْدُمُنِي يَا رَبِّ عَجَلٌ بِالْفَأْرِ وَالْأَرْضِ

وابتهاجاً بدولة نور الدين، شبه ابن منير الطرابلسي العدل الذي نعمت به الرعية في ظل هذه الدولة برداء مدبج لبسه الناس ورَّهوا به، يقول^(٢):

الْبُسُورَا عَدْلَكَ الْمَدْبَجَ فَاخْتَا لَوْا بَنَاتٍ فِي وَشِيَةٍ وَبَنِينَا

وقد يستعير العماد الأصفهاني تشبيهه للطيور المغردة أصوات الوعاط والقراء اللذين كانوا ينتشرون في مساجد دمشق، يقول^(٣):

وَرُقَهَا فِي مَنَابِرِ الْأَيْكِ مِنْهَا وَاعْظَاتٌ مِنْ شَأْنِهَا التَّنْكِيرُ
وَكُنَّ الْقُمْرِيَّ مَقْرِيَّ آيٍ قَدْ صَفَا مِنْهُ صَوْتُهُ وَالضَّمِيرُ

وبيث ابن القيسراني الحياة في الثغور، فيصورها خيولاً تروّض لنور الدين وتجمع على غيره، يقول^(٤):

وَلَشَمَرَتْ عَنْهَا الثَّغُورُ وَأَصْبَحَتْ فِيهَا الْعَوَاصِمُ وَهِيَ غَيْرُ عَوَاصِمٍ

(١) ابن عنين، ديوانه، ص ٢٢٩.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٩٤.

(٣) الأصفهاني، ديوانه، ص ١٧٩.

(٤) ابن القيسراني، شعر ابن القيسراني، ص ٣٦٣.

تلك التي جمحت على من راضها ودعوت فانقادت بغير شكائم

وعلى الرغم من أن الشعراء قد استوحوا كثيراً من صورهم من البيئة المحيطة بهم، وأنهم وسموا هذه الصور بطابعهم الشخصي، وعلى الرغم مما حققته هذه الصور في التزيين والإبانة والتوضيح، إلا أن قسماً كبيراً من الشعر الشامي قد غلب عليه الطابع الشكلي الذي يرمي إلى إظهار قدرة الشاعر على البراعة في الوصف، واختراع التشبيهات والاستعارات، وتوليد المعاني الجديدة من المعاني القديمة^(١)، ومن مظاهر هذه الشكلية عدم مراعاة الانسجام في الصور في سياق العمل الأدبي كما في الأبيات التي قالها الشّواء الحلبي في وصف روضة في إحدى مدن الشام، حيث جمع عدداً من الصور المتباينة، فصورة تمثل الحزن وثانية تصف الانتشاء والعجب، وثالثة تصور الفرح والطرب ورابعة تثير الخوف والفرع، يقول:

فَالْغَمَامُ الْجَوْنَ تُحْسِبُهُ	حِينَ يَهْمِي جَفْنَ مُنْتَخِبِ
وَالصَّبَا فِي الرُّوضِ قَدْ سَحِبْتُ	ذِيهَا تَنْثِي عَلَى السَّحْبِ
وَفِرْعُ الْبَانِ قَدْ رَقِصْتُ	وَرَقَهَا مِنْ خَفَةِ الطَّرِبِ
وَالسَّوَاقي كَالْأَرَاقِمِ قَدْ	أَخَذْتُ لِلذَّعْرِ فِي الْهَرَبِ

ونرى القاضي ثقة الملك بن أبي جرادة يصف كسر الخليج بمصر في صورة تشبيهيه بسيطة تقوم على المشابهة الشكلية البصرية، يقول^(٢):

حَبَّذَا كَسْرُ الْخَلِيَجِ	وَهُوَ ذُو مَرَأَى بِهِجِجِ
حَبَّذَا مَا نَحْنُ فِيهِ	مِنْ دُعَاءٍ وَضَجِجِ
وَالشَّوَانِي فِيهِ تَجْرِي	كَالصَّيَاصِي فِي النَّسِجِ
نَحْنُ فِي جَوْ سَمَاءِ	مَا لَدِيهَا مِنْ فُرُوجِ
كُبُورٍ فِي بَرُوجِ	أَوْ سَطُورٍ فِي دُرُوجِ
أَوْ زَهْوٍ فِي مَرُوجِ	أَوْ مَلُوكٍ فِي سَرُوجِ

(١) للاستزادة انظر: الرقب، الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري، ص ٣٣٧.

(٢) الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، ج ٢، ص ٢١٧.

الخاتمة:

وبعد، فقد تمّ في الصفحات السابقة دراسة صورة المدينة في الشعر الشاميّ في القرنين السادس والسابع الهجريّين، وقد تبين أن المدينة الإسلاميّة كانت عاملاً قوياً من عوامل الإبداع في ذلك العصر، نظراً للظروف التاريخيّة والسياسيّة والثقافيّة والاجتماعيّة، التي ألّمت بالمدن الإسلاميّة آنذاك.

فقد وصف الشعراء الشاميون مدنهم بما فيها من مظاهر حضارية واجتماعية وثقافية، وصوروا جوانب متعددة من مظاهر الحضارة والعمران فيها، ومن ثمّ فإنّ هذه الصورة تغني المعلومات التاريخيّة والحضارية عن ذلك العصر.

وعبر الشعراء الشاميون عن هيامهم بالمدن التي وصفوها، ولاسيما في تصويرهم للمشهد الطبيعي لهذه المدن في فصولها المتنوعة، وارتبط شعر وصف الطبيعة عندهم بأشعار رقيقة ترّف بمشاعر الحنين إلى الأوطان ولاسيما لدى أولئك الشعراء الذين ابتعدوا عن مدنهم قسراً أو برغبتهم، حيث تتراءى في مخيلتهم الشعرية ديار الشام في صورة جميلة موشحة بمشاعر الشوق والحنين، حتى لتغدو هذه الديار في قصائدهم (جنة الدنيا).

ويشكل هجاء المدينة والنفور منها البعد الثالث من أبعاد المدينة الإسلاميّة في الشعر الشاميّ، وجاء ذلك نتيجة لعوامل اجتماعية نتجت عن علاقة الشاعر بالمدينة وسكانها، وما نتج عن هذه العلاقة من موقف سلبيّ، قد تعود إلى موقف شخصي ذاتي، وقد يدفع ضيق الحال والفقر إلى ذم المدينة وانتقاد قيم أهلها وسلوكياتهم، وقد يكون وراء ذلك أسباب سياسية تدفع الشاعر إلى ذمّ المدينة كما هو الحال عند وفاة صلاح الدين وانتقال الخلافة إلى أبنائه، إذ احتدم الصراع بينهم على الخلافة الأمر الذي جعل هذا المشهد السياسي مجالاً للسخرية والهزل عند الشعراء الشاميّين.

ورثى الشعراء الشاميون المدن الإسلاميّة التي تعرضت للتدمير والتخريب على أيدي الغزاة، فقد رثى الشعراء ديار الشام عامّة وبيت المقدس وعسقلان والمعرة وديار جوران، وصوروا في مرآتهم ضروب الفواجع والمآسي التي تعرضت لها هذه المدن، من تدمير، وتقتيل، وسبي وأسر، كما رثى الشعراء بعض المدن التي

دمرها المغول، وقد جاءت مراثيهم جميعاً محملة بطاقات انفعالية تعبّر عن مشاعر الحزن والأسى، وتحت الأُمَّة على الدفاع عن هذه المدن.

وتوسّل الشعراء بأساليب فنية متعددة في رسم صور فنية جميلة للمدينة الإسلاميّة، وقد استوحوا صورهم من مصادر فنية متعددة، وكانت الصورة الأنثوية من أبرز هذه الصور، حيث تتشخص المدينة في هيئة امرأة، ثمّ تتنوع الصورة حسب الحالة التي تكون عليها المدينة، وجاءت معظم الصور التي وصفت المدينة ذات طابع حسيّ، ومنه أنّ الصورة اللونية كانت هي الغالبة على أوصافهم، إلاّ أنّ هذه الصورة امتزجت بصور حسيّة أخرى : السمعية والشمية واللمسية، لتأثّف من ذلك صور متعددة تعبّر عن استغراق الشاعر في حبّه لمدينته وتعلّقه بها بحواسه كلّها.

وأخيراً، فإنّهُ يمكن النظر إلى معظم الشعر الذي قيل في وصف المدن الإسلاميّة في القرنين السادس والسابع الهجريّين، على أنّه صورة من صور الحديث عن فضائل البلدان ومظهراً من مظاهر التعلّق بالأرض الإسلاميّة التي كانت تتعرض آنذاك للغزو الصليبيّ الذي عمل جاهداً على تغيير الوجه الحضاريّ لتلك الأرض.

المراجع

- إبراهيم، نبيلة، خصوصية التشكيل الجمالي للمكان في أدب طه حسين، مجلة فصول، العددان الأول والثاني، أكتوبر ١٩٩٠م، ص ص ٢٩-٦٤.
- الأبيوردّي، محمد بن إسحق. (١٩٧٥). ديوانه، تحقيق د. عمر الأسعد، دمشق، مطبعة زيد بن ثابت.
- ابن الأثير، ضياء الدين. (١٩٦٢). المثل السائر، تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار الفكر، القاهرة.
- ابن الأثير، عزّ الدين علي بن أبي الكرم محمد. (١٩٦٣). التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق: عبد القادر طليمات، دار الكتب الحديثة ومكتبة المثني، القاهرة، وبغداد.
- ابن الأثير، محمد بن محمد. (١٩٨٠). الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت.
- إسماعيل، عز الدين. (١٩٧٥). في الأدب العباسي الرؤية والفن، دار النهضة العربية للطباعة، بيروت.
- الأصفهانيّ، العماد أبو عبدالله محمد بن حامد. (د.ت). الفتح القسيّ في الفتح القدسيّ، تحقيق محمد صبح، الدار القوميّة للطباعة والنشر، القاهرة.
- الأصفهاني، العماد أبو عبدالله محمد بن حامد. (١٩٨٣). ديوانه، جمع وتحقيق ناظم رشيد، الموصل، جامعة الموصل.
- الأصفهانيّ، أبو عبدالله محمد بن حامد. (١٩٥٩). خريدة القصر وجريدة العصر - قسم شعراء الشام، تحقيق: شكري فيصل، دمشق، المجمع العلميّ العربيّ.
- الأصفهاني، العماد، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم العراق، تحقيق: محمد بهجة الأثري، وجميل سعيد، مطبعة المجمع العلمي، العراق، ١٩٥٥، ج ٣.
- ابن أبي أصيبعة، أبي العباس أحمد بن قاسم. (د.ت). عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق د. نزار رضا، مكتبة الحياة، بيروت.

ابن أيوب، تاج الملوك بوري. (١٩٨٨) ديوانه، تحقيق محمد عبد الحميد سالم، هجر للطباعة والنشر، القاهرة.

باشا، عمر موسى. (١٩٦٤). الأدب في بلاد الشام في عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك، المكتبة العباسية، دمشق.

باشلار، جاستون. (١٩٨٠). جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، دار الجاحظ للنشر، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد.

بدوي، أحمد أحمد. (١٩٧٩). الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية، دار نهضة مصر، القاهرة.

بدوي، عبده. (١٩٩٧). التقاء العمارة الإسلامية بالشعر مع تطبيقات على الشعر الحديث، دار الهلال، القاهرة.

البكور، حسن فالح حسين. (١٩٩٩). المدينة في الشعر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة اليرموك، الأردن.

ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن محمد. (د.ت). النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، دار الكتب المصرية.

التلعفري، شهاب الدين. (د.ت). ديوانه، القسم الثاني، تحقيق: هنرييت سابا، (د.ن)، (د.م).

أبو تمام، ديوانه، شرح الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد عبده، دار المعارف، مصر، ط٣، ١٩٧٦.

ابن جبير. (١٩٨٠). رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت.

جرار، مأمون. (١٩٨٣). أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي من القرن السابع إلى القرن التاسع للهجرة، مكتبة الأقصى، عمان، الأردن.

الجلياني، عبد المنعم. (د.ت). منادح الممادح وروضة المآثر والمفاخر في خصائص الملك الناصر، مخطوط رقم ٣٢٩٨ أدب، مكتبة الأسد الوطنية، دمشق.

الجندي، أحمد. (١٩٨٤). شعراء من بلاد الشام، دار طلاس، دمشق.

جياووك، مصطفى عبداللطيف. (١٩٧٧). الحياة والموت في الشعر الجاهلي، منشورات وزارة الأعلام، العراق، سلسلة دراسات ١٢٣.

حسين، محمد محمد. (١٩٦٩). الهجاء والهجاؤون في صدر الإسلام، ط٢، دار النهضة العربية، بيروت.

حمادة، محمد ماهر. (١٩٨٦). وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٣.

الحمصي، ابن الدّهان. (١٩٦٨). ديوانه، تحقيق عبدالله الجبوري، مطبعة دار المعارف، بغداد.

الحموي، شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت بن عبدالله، معجم الأدباء، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣.

الحموي، محمد ياسين. (١٩٤٦). دمشق في العصر الأيوبي، مكتب النشر العربي، دمشق.

الحموي، ياقوت بن عبدالله. (١٩٧٩). معجم البلدان، بيروت، دار صادر.

الحنبلي، أبو الفلاح عبدالحى بن العماد. (١٣٥٠هـ). شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مكتبة القدسي، القاهرة.

الحنبلي، أحمد بن إبراهيم. (١٩٧٨). شفاء القلوب في مناقب بني أيّوب، تحقيق ناظم ارشيد، بغداد، وزارة الثقافة.

الحنبلي، كمال الدين عمر بن أحمد بن العديم. (د.ت). بغية الطلب في تاريخ حلب، (ميكروفلم) رقم ٩٢٩ تاريخ، معهد إحياء المخطوطات العربية، القاهرة.

خربوش، حسين. (١٩٩٢). ظاهرة السقيا وإيعادها الدلالية في القصيدة العربية، مجلة جامعة البعث، ع ١١، ص ١٧-٥٢.

خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد ابن محمد. (١٩٦٨). وفيات الأعيان وأنباء الزمان، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

خليل، عماد الدين. (١٩٨٠). الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام، بيروت، ١٩٨٠.

الدمشقي، أبو الفداء إسماعيل بن كثير. (١٩٦٩). تفسير القرآن العظيم، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

الدمشقي، أبو الفداء الحافظ بن كثير. (١٩٨٧). البداية والنهاية، تحقيق د. أحمد أبو ملح وأخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣.

دنينير، إبراهيم بن محمد بن إبراهيم، (١٩٨١)، ديوانه، تحقيق: محمود شاعر سعيد، جامعة الأزهر، القاهرة.

دهمان، أحمد علي. (د.ت). ابن عنين الأنصاري وشعر الحنين والتشوق إلى دمشق الفيحاء، دراسة تحليلية، دار البعث، الهيئة العامة السورية للكتاب. الذهبي، شمس الدين. (١٩٨٢). سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٢، بيروت.

الربابعة، موسى. (١٩٩٠م). ظواهر الانحراف الأسلوبي في شعر مجنون ليلى، مجلة أبحاث اليرموك، م٨، ع٢.

الرقب، شفيق. (١٩٩٣). الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري، دار صفاء، عمان.

الرقب، شفيق. (١٩٩٦). صور من الحياة الاجتماعية للفرنجة في النثر الفني زمن الحروب الصليبية، مجلة دراسات الجامعة الأردنية، المجلد ٢٣، العدد ٢، ص ٣٣٥-٣٥٠.

الرقب، شفيق. (١٩٩٨). شعر الهجاء في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، عدد ٥٥/تموز/كانون الأول، ص ٢٧-٥٦.

الرقب، شفيق. (٢٠٠٩). دراسات اجتماعية في الأدب الأيوبي والمملوكي، دار يافا العلمية، عمان.

الرقب، شفيق. (٢٠٠٩). شعراء شاميون في العصر الأيوبي، دار يافا العلمية، عمان.

الرقب، شفيق. (د.ت). صورة المدينة المحتلة في الشعر الشامي زمن الحروب الصليبية، مجلة المنارة، جامعة آل البيت، ص ٣٦-٥٥.

رمضان، أحمد. (١٩٧٧). المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، الجهاز المركزي للكتب الجامعية، القاهرة.

رنسيمن، ستيفان، (١٩٦٧-١٩٦٩). تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت.

الزبيدي، محمد بن محمد. (١٩٦٥). تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج وآخرون، وزارة الإعلام، الكويت.

الزُّرعي، أحمد بن عقيل بن نصير. (د.ت). المختار من ديوان ابن عقيل الزُّرعي، مخطوط رقم ٢٨١٦، طبقبوسراي، تركيا.

الزركلي، خير الدين، (١٩٧٩)، الأعلام، دار العلم للملايين، ط٤، بيروت. ابن السَّعَّاتِي، عليّ بن رستم. (١٩٣٨). ديوانه، تحقيق أنيس المقدسيّ، بيروت، المطبعة الأمريكيّة.

السبكي، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، (١٩٧٠)، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمود محمد الطناحي، عبد الفتاح محمد الحلو، ط١، مطبعة عيسى البابي الحلبي، الجزء السابع.

سلام، محمد زغلول. (١٩٦٧). الأدب في العصر الأيوبيّ، دار المعارف، القاهرة. الشّاغوريّ، فتّيان. (١٩٧٦). ديوانه، تحقيق أحمد الجنديّ، مجمع اللغة العربيّة، دمشق.

أبو شامة، شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي، (١٩٧٤). الذَّيْل على الروضتين في أخبار الدولتين، بيروت، دار الجيل، ط٢.

أبو شامة، شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي، (د.ت). الروضتين في أخبار الدولتين: النوريّة والصلاحية، بيروت، دار الجيل.

ابن شداد، بهاء الدين. (١٩٦٤). النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق د. جمال الدين الشيال، القاهرة.

ابن شداد، عزّ الدين أبي عبدالله محمد بن علي بن إبراهيم. (١٩٥٦). الأعلّاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق

سامي الدّهان، المعهد العلمي الفرنسي، دمشق.

ابن الشعّار الموصليّ. (د.ت). عقد الجمان من شعراء هذا الزمان، ميكرو فيلم رقم ٣٣٩ تاريخ، معهد أحياء المخطوطات العربيّة، مصر.

الشوابكة، محمد. (١٩٩١). دلالة المكان في مدن الملح لعبد الرحمن منيف، مجلة أبحاث اليرموك، م٩، العدد الثاني.

الشوكاني، محمد بن علي. (١٩٢٩). البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، القاهرة.

الصفدي، خليل بن إيبك. الوافي بالوفيات، الجزء الثالث والعشرون، مخطوط رقم ٢٩٢٠/٢٥، مكتبة احمد الثالث، عنه نسخة مكبرة في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية من غير رقم.

الطباخ، الشيخ محمد راغب. (١٩٢٣). أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، المطبعة العلمية، حلب.

الطبري. أبو جعفر محمد بن جرير (١٩٨٧). تاريخ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن الطرابلسيّ، أحمد بن منير. (١٩٨٦). ديوانه، جمعة وقدم له د. عمر التدمريّ، بيروت، دار الجيل، طرابلس، مكتبة السّائح.

عاشور، سعيد عبدالفتاح. (١٩٧٤). المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، الدار المتحدة للنشر، بيروت.

عباس، إحسان. (١٩٩٨). تاريخ بلاد الشام في عهد الأتابكة والأيوبيين، منشورات لجنة تاريخ الشام.

عبدالحقّ البغداديّ، صفّي الدين عبدالمؤمن. (١٨٥٢). مرصد الإطلاّع على أسماء الأمكنة والبقاع، ليدن، مطبعة بريل.

عبدالصبور، صلاح. (١٩٨٢). قراءة جديدة لشعرنا القديم، دار اقرأ، بيروت. عبدالمهدي، عبدالجليل. (١٩٨٩). بيت المقدس في أدب الحروب الصليبيّة، عمّان، دار البشير.

العبري، أبو الفرج غريغوريوس بن أهرون المظني. (١٩٨٣). تاريخ مختصر الدول، دار الرائد اللبناني، بيروت.

ابن العديم، كمال الدين الحلبي، (١٩٦٨). زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق سامي الدّهان، المعهد الفرنسيّ، دمشق.

ابن عساكر، الحافظ أبو الحسن علي بن حسن. (١٩٧٦). تاريخ مدينة دمشق، م٢، تحقيق د.صلاح الدين المنجد، المجمع العلمي العربي، دمشق.

ابن عساكر، الحافظ أبو الحسن علي بن حسن. (د.ت). تاريخ مدينة دمشق، ج١٥، ج١٦، مكتبة الجامعة الأردنية.

ابن عساكر، الحافظ. (١٩٧٩). تهذيب تاريخ دمشق الكبير، هبة عبد القادر بدران، دار السيرة، بيروت، ط٢.

العسقلاني، ابن حجر. (د.ت). الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. حققه وقدم له ووضع فهرسه محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، مصر.

علي، محمد كرد. (١٩٦٩). خطط الشام، مطبعة المفيد، دمشق، الجزء الأول.
العمرى، شهاب ابن فضل الله. (١٩٢٤). مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية القاهرة.

عنين، شرف الدين محمد بن نصير. (د.ت). ديوانه، تحقيق خليل مردم بك، بيروت، دار صادر.

غوستاف، لوبون. (١٩٥٧). حضارة العرب، ترجمة محمد بدران، القاهرة، جامعة الدول العربيّة.

أبو الفداء. (١٨٤٠). تقويم البلدان، دار الطباعة السلطانية، باريس.
ابن القلانسيّ، حمزة بن أسد بن عليّ. (١٩٨٣). تاريخ دمشق، تحقيق د. سهيل زكّار، دمشق، دار حسان.

القلقشندي. (١٩٦٣). صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة.

ابن القيسرانيّ، أبو عبدالله محمد بن نصير. (١٩٩١). شعر ابن القيسراني، جمع وتحقيق ودراسة د.عادل جابر، الزرقاء، الوكالة العربيّة للتوزيع.

الكتبي، محمد بن شاكر. (١٩٧٣). فوات الوفيات، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

- الكتبي، محمد بن شاكر. (١٩٧٧). *عيون التواريخ*، تحقيق د. فيصل السامر ونبيله عبد المنعم، وزارة الإعلام العراقية، بغداد.
- الكلبي، العرقلة. (١٩٧٠). *ديوانه*، تحقيق أحمد الجندي، مجمع اللغة العربية، دمشق.
- لودفيش، بيركهارت. (١٩٩٦). *رحلات بيركهارت*، ترجمة أنور عرفات، عمان، وزارة الثقافة.
- المستوفي، أبو البركات المبارك بن أحمد. (١٩٨٠). *تاريخ آربل*، تحقيق سامي الصقار، بغداد، دار الرشيد.
- المغيض، تركي. (١٩٨٩). *جماليات المكان في شعر عرار*، مجلة *مؤتة للبحوث والدراسات*، المجلد ٤، العدد ٢، ص ١٨٦ - ٢٤٣.
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي. (١٩٥٦). *السلوك لمعرفة دول الملوك*، نشر محمد مصطفى زيادة، مطبعة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط ٢.
- المنقذ، أسامة. (١٩٣٠). *كتاب الاعتبار*، تحرير فيليب حتي، جامعة برنستون.
- منقذ، أسامة. (د.ت). *ديوانه*، تحقيق أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، القاهرة، عالم الكتب.
- الموصللي، ابن الشعار المبارك بن أحمد. (د.ت). *قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان*، معهد إحياء المخطوطات العربية، القاهرة.
- هدراة، محمد مصطفى. (١٩٨١). *اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري*، دار المعارف، مصر.
- واصل، جمال الدين محمد. (١٩٥٣). *مفرج الكروب في أخبار ملوك بني أيوب*، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، دار إحياء التراث القديم.